

الباب الثاني

الشعر الجاهلي - مدائمه - أنواعه

obeikandi.com

الفصل الأول

رواية الشعر - تعريفه - قضية افتعال

الشعر الجاهلي

obeikandi.com

❖ رواية الشعر الجاهلي ودوائه

من الثابت في العصر الجاهلي أن الشعراء كانوا يحافظون علي نتائجهم الشعري عن طريق الرواية ويعتمدون عليها ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعني ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت الرواية متبعة أزمانا متتالية في الإسلام، ويدل علي ذلك أقوي الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعتمد علي الرواية والمشافهة إلي نهاية السنة الأولى للهجرة ، وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعتمدوا إلي تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور نحو قرن علي الهجرة الشريفة فأولي أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي .

ومن يرجع إلي شعر الجاهلين يجد شعراءهم يذكرون الرواية وأنها وسيلة انتشار الشعر في القبائل التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلي أفاق الجزيرة يقول الشاعر :

ندمت علي شتم العشيرة بعدما ° مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضى ° كما لا يرد الدر في الضرع حالبه
فالشاعر نادم علي هجائه لقومه لأنه شاع في العرب عن طريق
الرواة ولم تعد له حيلة في رده .

- فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيبة لنشره وذبوعه من جيل إلي جيل ومن قبيلة إلي أخرى .
- وكان لكل شاعر مشهور رواية أو أكثر يتلقون عنه ، وهؤلاء الرواة منهم الشعراء الذين تتلمذوا في أول الأمر للشاعر الذي يروون عنه ويتخذون في نظمهم شعره مقلدين ثم معتمدين علي أنفسهم بعد أن تكتمل لهم أدوات الفن ، ومنهم أفراد قبيلة الشاعر وذلك لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم .

- كل هذا ساعد علي نشر الشعر والحفاظ عليه ، ولهذا كتب للشعر الجاهلي أن يظل حياً في وجدان العرب مستقراً في أفكارهم ، كما ساعد علي كثرة رواية الشعر آنئذ أن العرب كانت تعير من قلت روايته للشعر سواء كان ذلك المقل هو الراوي أو القبيلة ، ومن ذلك ما يقوله بعض بني بكر معيراً تغلب لكثرة تردادها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكان ليس لها شعر سواها ، يقول :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مثنوم

° وكان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروي عنه ، وما يزال يروي له ولغيره حتي ينفق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن ، ونص صاحب كتاب " الأغاني " علي سلسلة من هؤلاء

الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتي أجاد نظمه زهير بن أبي سلمي المزني ، وكان لزهير راويان كعب ابنه ، والحطيئة ، ثم تلقن الشعر عن الحطيئة ورواه هذبة بن خشرم العذري ، وعن هذبة أخذ جميل صاحب بئينة وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة .

- نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلي لاحقتها ، وظلت الحال كذلك حتي جاء الإسلام ، فلم يقف الإسلام في وجه الشعر بل وجهه وجهة حسنة تخدم الدعوة وتخدم الإنسانية ، ومع أن المسلمين قد أنكبوا علي تلاوة القرآن الكريم إلا أنهم لم يتركوا الشعر طعمة للنسيان ، فقد كان رسول الله " صلي الله عليه وسلم يحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار علي هجاء قريش والرد علي هجاء شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الشعر من الصحابة ، حتي شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت ، قال الشريد بن سويد الثقفي : " استنشدني النبي صلي الله عليه وسلم " شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فأخذ النبي صلي الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه حتي أنشدته مائه قافية .

- وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي ، وكان يتمثل به أحياناً في خطابته وكذلك كان عمر ، وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ،

ومعني ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوي من شأنها كحاجة الناس إليه للاستفادة به في معرفة معاني بعض الألفاظ ، ومعرفة الأنساب ، كما زادت رواية الشعر عندما اشتدت الحروب بين علي ومعاوية وباقي الأحزاب السياسية .

- كما كان رواة في العصر الأموي والعباسي يروون الشعر الجاهلي بقصد نشره في الناس ، وأكثر من هذا نشأت طبقة من الرواة المحترفين الذين اتخذوا من رواية الشعر الجاهلي عملاً لهم ومن هؤلاء حماد الراوية ، وخلف الأحمر والمفضل الطيبي .

مدرسة الرواة

ويقصد بمدرستي الرواة مجموعة من الشعراء الحضريين الذين احترفوا رواية الشعر الجاهلي ، وكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين :

(١) مدرسة في الكوفة (٢) مدرسة في البصرة

وذلك لأنهم عاشوا غالباً في البصرة والكوفة ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب ، وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

﴿ أما مدرسة الكوفة : فقد كانت تعرف بعدم تحري الدقة وعدم التشدد في روايتهم ، ولهذا كثرت الأشعار عندهم وتضخمت روايتهم ولم تقتصر هذه التهمة " عدم تحري الدقة " علي رواية الشعر فحسب بل عرف عنها ذلك في الحديث النبوي أيضاً حتي كان مالك بن أنس يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها ، ويقول أبو الطيب اللغوي : (والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلي من لم يقله وذلك بين في دواوينهم)

- وكان علي رأس هذه المدرسة في الكوفة حماد الراوية ، وكان متهماً كثير الوضع ولا يوثق بما يرويه ، ويروي عن الهيثم بن عدي أنه كان يقول : " ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد " هذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون اسم الراوية علماً عليه ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه ، فكان ينظم علي لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به وكثر منه ذلك حتي عرف به واشتهر . ويقال إنه مدح بلال بن أبي بردة المتوفي بعد سنة ١٢٦ بقصيدة وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية .

يقول الجاحظ : (ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً)^(١) ومن رواة الكوفة أيضاً المفضل الضبي ، بيد أنه كان يختلف عن حماد فقد كان المفضل ثقة يوثق بروايته ، ومعني ذلك أن رواة الكوفة ليسوا في الجملة متهمين بل كان بينهم من كان يوثق بروايته ويحاط بنسيج من الأمانة والدقة والتحري .

﴿ أما مدرسة البصرة : فقد كانت تعرف بالدقة والتحري والتشدد وربما رجع ذلك إلي أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، وكان من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب ، وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلي قريب من السقف ... ثم إنه تتسك فأحرقها ، وهذا الإحراق لا يغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حملة عنه تلاميذه البصريون وكان أمامهم وقدوتهم ، ويحكي عنه أنه قال : " ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يروي للأعشى من قوله :

وأكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلا الشيب والصلعا

(١) الحيوان ج ٤ ص ٤٤٧ .

- ومن رواية البصرة أيضاً خلف الأحمر ، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارهم بل لعله يتقدمه . ومنهم أيضاً الأصمعي الذي أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها وأخبارها ، وقالوا عنه أنه ثقة عدل .

- وجاء بعد من قدمنا تلاميذ لهم من رواية القرن الثالث ، وعلي رأسهم أبو عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي الكوفيان ، ومحمد بن حبيب ، وابن السكيت ، وثعلب ، وانتهت الرواية في البصرة إلي أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري .

- ويتضح من كل ما سبق أن رواية الشعر الجاهلي أحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص - وإن كان رواية متهمون - فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري .

- فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال محمد بن السائب الكلبى وابنه هشام . أما ما انفق عليه أو جاءنا عن الأثبات الثقات فينبغي أن نقبله .

* تدوين الشعر الجاهلي

لم يدون العرب أشعارهم في الجاهلية ، ودليل ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً في الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومن كان منهم يعد قصيدته في عام أو أقل من عام كان يعدها في نفسه ويردها في ذاكرته . ثم ينشدها ويحملها الناس عنه . وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام ، فهم لا يدونون شيئاً غير القرآن الكريم حتى لا يختلط به ما ليس منه .

- ثم بعد فترة أخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية ، وكان الذين يدونون الموضوعات الإسلامية كالمغازي والسير يعرضون لذكر العرب الجاهليين ، والأنساب ، ويستشهدون علي ما يقولون بالشعر الجاهلي .

ثم دون بعد ذلك الشعر الجاهلي والإسلامي وكان في حقبة متأخرة من عصر بني أمية ، وأخذت حركة التدوين تنمو حتى بلغت مبلغها من القوة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

- ويظهر أنهم لم يكونوا يدونون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً على أنه

أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل ، لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها علي حده .
وإذا كان الرواة الأولون لم يدونوا ما رووه لطلابهم ، فإن الرواة القالين لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً علي التوثيق والتخريج ، وعلي رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة ، وكان هؤلاء الرواة المدونون لا يكتفون بالسماع من أغلب الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلي الصحراء ليتوثقوا مما يروونه علي نحو ما هو معروف عن الأصمعي نفسه ، وعن أبي عمرو الشيباني ، ثم أخذت موجة من هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً حتى أن الناظر في هذا النشاط لا يكاد يبلغ حصره وعده عدد الكتب التي ألفت ودونت في ذلك .

✽ مصادر الشعر الجاهلي

ظل الشعر الجاهلي - كما سبق - يتناقل عن طريق الرواية الشفهية فترة ليست بالقليلة ، حتى جاءت مجموعة من الرواة المخلصين أخذوا على عاتقهم تحقيق هذا الشعر وتمحيصه وتخليصه مما ليس منه ثم تدوينه . وكان لابد لهذا الشعر المدون من التوثيق ، والتوثيق يأتي من مصادر متعددة .

ومن أشهر وأهم المصادر التي اعتمد عليها الشعر الجاهلي :
١) المصدر الأول : المعلمات

وهي قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بماء الذهب على القباطي (نوع من القماش) ثم علقتها بالكعبة إعجاباً بها و إشادة بذكرها وقد بقي بعضاً منها حتى يوم فتح مكة ، وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام .
و أصحابها هم امرؤ القيس ، و زهير بن أبي سلمى ، و طرفة بن العبد ، و لبيد بن ربيعة ، و عنتر بن شداد وعمرو بن كلثوم ،
والحارث بن حلزة .

- ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة ويقول أنها سميت معلمات لنفاستها أخذاً من كلمة " العلق " بمعنى النقيس وهو كلام كما يقول الزيات بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة ، ويقول: إن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام .

فمن ذلك تعليق قريش الصحيفة التي قاطعوا بها بني هاشم وعبد
المطلب لحماية الرسول " صلي الله عليه وسلم " ، كما علق
الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالأمون الخ
وقد عني الشراح بهذه القصائد " المعلقات " فشروحا مراراً ومن
ذلك " شرح الزوزني " ثم " شرح التبريزي " .

٢) المصدر الثاني : المنتخبات الشعرية الطامة

وهي مجموعة من الكتب الشعرية جمعها أصحابها لشعراء آخرين ،
و اتخذوا من هذا الانتقاء والانتخاب منهاجاً لهم .
وكانوا ينتقون المقطوعات والقصائد الشعرية التي تروق لذوقهم هم .
ومن هذه الاختيارات :

أ) المفضليات : وسميت بذلك نسبة إلى جامعها وهو " المفضل
الضبي " راوي الكوفة الثقة . وهي مائة وستة وعشرون قصيدة
أضيف إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ ، وقد تزيد وتنقص
وتتقدم القصائد و تتأخر بحسب الرواية عن المفضل ، وقد جمعها
صاحبها لتتقيف المهدي بن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حين
عهد إليه بذلك .

ب) الأصمعيات : وسميت بذلك نسبة إلى راويها " الأصمعي " وقد
بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على
٧١ شاعراً ، ولم يتعلق بها الشراح كالمفضليات لأن الأصمعي لم
يرو كثيراً من القصائد كاملة بل اكتفى بمختارات منها .

(ج) جمهرة أشعار العرب : " لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي " وتضم هذه الجمهرة تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام في كل قسم سبع قصائد : القسم الأول خاص بالمعلقات . والقسم الثاني : المجهرات وهي قصائد لبعض الشعراء منهم أمية بن أبي الصلة و عبيد بن الأبرص والقسم الثالث : المنتقيات أي المختارات ، القسم الرابع : المذهبات وربما سميت بذلك لأنها استحققت أن تكتب بالذهب وهي لشعراء من الأنصار جاهليين ومخضرمين ، القسم الخامس : عيون المرثي القسم السادس : المشوبات وهي لمخضرمين شابههم الكفر والإسلام القسم السابع : الملحقات وجميعها لشعراء إسلاميين .

(د) مختارات ابن الشجري : وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي نسبت لابن الشجري واسمه هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني . وهذه المختارات موزعة علي ثلاثة أقسام . الأول لشعراء منهم الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادي والمتمس ، والثاني مختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي حازم وعبيد بن الأبرص ، والثالث مختارات من ديوان الحطيئة .

(هـ) دواوين الحماسة : وأشهرها ديوان الحماسة لأبي تمام ، وقد شرح هذا الديوان مرات عدة وحماسته موزعة علي عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة لذا سميت بهذا الاسم ، ومنها أيضا حماسة

البحثري وهي مقطوعات قصيرة موزعة علي مائة وأربعة وسبعين بابا أكثرها في نزعات خلقية ولم يهتم القدماء بشرحها .
ولابن الشجري حماسة أغلب أشعارها منتخب من الشعر الجاهلي
وهناك الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري.
٣- المصدر الثالث : الدواوين

وهي نوعان

(أ) دواوين مفردة : وهي لشعراء جاهليين منهم : امرئ القيس
و النابغة و زهير و طرفة و عنتره و علقمة و علي الرغم من طبع هذه
الدواوين ونشرها أكثر من مرة فإن هناك دواوين مخطوطة لم تنشر .
(ب) دواوين القبائل : وهي التي جمع منها أبو عمر إسحاق بن مرار
الشيباني نيفاً وثمانين قبيلة فقدت جميعها ولم يبق منها إلا قطع من
ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات . أربع منها في أوروبا
والخامسة نشرتها دار الكتب المصرية .

٤) المصدر الرابع : كتب التراث

ومن أهم هذه الكتب التي اشتملت علي شعر جاهلي كثير " شرح
النقائض " لأبي عبيدة ، و " الكامل " لابن الأثير ، و " العقد الفريد "
لابن عبد ربه الأندلسي .

ومن الكتب الجيدة أيضا : طبقات الشعراء لابن سلام ، والبيان
والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد .

وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل " نقد الشعر " لقدماء
ابن جعفر ، و " الصاعتين " لأبي هلال العسكري ، و " الوساطة بين
المتنبي وخصومه " للقاضي الجرجاني ، و " العمدة " لابن رشيق .
ومن الكتب التي احتفظت بكثير من الأشعار والتراجم والأخبار كتاب
" الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني ، و كتاب " خزنة الأدب "
للبيгдаدي وهو شرح علي شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لابن
الحاجب وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين .

❖ قضية الانتحال في الشعر الجاهلي

قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ظاهرة غير منكورة ، فقد دخل فيه ما ليس منه وقد أشار إلي ذلك العلماء والرواة ، وحاولوا جهودهم إبعاد المزيف والتنبيه عليه ، وتمييز المنحول من غيره ، وبلغ من حرصهم علي ذلك إهمال الرواة الوضاعين أو النحالين ، فقد كان الضبي والأصمعي وغيرهم لهؤلاء بالمرصاد .

- وكان من أوائل الكتب التي أسهبت في هذا الموضوع كتاب " طبقات فحول الشعراء " لابن سلام الجمحي وقد أثار ابن سلام تلك المشكلة وردّها إلي عاملين : عامل التقبائل التي كانتا تنزّيه في شعرها لتنزّيه في مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين .

- وقد لفتت هذه القضية - قضية انتحال الشعر الجاهلي - أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب وبدأ النظر فيها " نولدكه" إلا أن بعض المستشرقين من النصاري واليهود الذين ظهروا في القرن السابع عشر الميلادي وما بعده وتخصصوا في الدراسات العربية الإسلامية لأهداف استعمارية قد ساقوا قولاً يهدفون منه هدم الشعر الجاهلي عن طريق إثارة الشكوك حوله والإتيان عليه من أساسه ، فزعموا أنه منحول ومكذوب ، وما نظم إلا في العصور الإسلامية نحلّه الوضاعون المزيفون لشعراء جاهلين لسبب من أسباب الوضع والانتحال أو ربما راق لهم ذلك إذ وجدوا فيه ما يقربهم من أهدافهم الخبيثة .

- وعلي رأس هؤلاء المستشرقين " مرجليوث " الذي زعم أن الشعر الجاهلي مدسوس مكذوب علي الشعراء الجاهليين صنعه الرواة الوضاعون من الإسلاميين أمثال حماد ، وجناد ، وخلف الأحمر .

- وقد ردد هذا الرأي من الأدباء العرب الدكتور / طه حسين الذي درس القضية دراسة مستفيضة في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه ، ولم يلبث أن ألف كتابه " في الأدب الجاهلي " الذي نشره في سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً .

- وقد ردد الدكتور طه حسين ما ساقه مرجليوث مما يزعم أنها تقوم أدلة علي ما يقول وهذه بعضها بإيجاز :

(١) يقول مرجليوث ومن بعده طه حسين أن الشعر الجاهلي فيه إشارات إلي قصص ديني ورد في القرآن الكريم ليوم الحساب والقيامة والغيب وما ظهر من نقوش فيها ذكر للآلهة وما يتصل بالعبادة في الجاهلية بينما لا يوجد مثل ذلك في الشعر الجاهلي ، وبمعني آخر الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية عندهم فهو لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة .

كما يزعم أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاقتصادية والسياسية
لدي عرب الجاهلية .

(٢) يزعم طه حسين ومن قبله مرجليوث أن الاختلاف في اللغة بين
القبائل واضح ، فقبائل الشمال تختلف في لغتها عن قبائل الجنوب
فضلاً عن اختلافها فيما بينها سواء في الشمال وحده أو الجنوب
وحده وأن الشعر كله جاء بلغة واحدة هي نفس لغة القرآن الكريم
التي أشاعها في العرب ، ويقولان لو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا
لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية .

رد عليهم :

هذه الأمور السابقة التي زعموها أدلة وبراهيننا علي الانتحال تسقط
واحدة واحدة إذا عرفنا ما يلي :

(١) أن الحياة الدينية في الجزيرة العربية كانت خليطاً من الوثنية
واليهودية والنصرانية والمجوسية والحنيفية وعبادة الكواكب ، وماذا
عسي أن يقول يهودي نصراني أو وثني لصابي ، فلم يكن لهم دين
قوي يظهر في عقيدتهم كما حدث في الإسلام ، ثم إن الشاعر في
الجاهلية كان عليه أن ينقي لغته مما لا يقبله غيره خاصة في العقائد
- ثم إن الشعراء الذين وصلت إلينا أخبارهم - علي قلتهم - لم
يصلنا من أشعارهم إلا بعضها ، وضاع سائرهما في أثناء الفتوح
الإسلامية وذلك لأن الناس انشغلوا عن رواية الشعر بالإسلام

والحرب ، وقد يكون الشعر الديني حظي بالضياح لعدم تدوينه ، أو لعل الرواة سكتوا عنه هذه الأشعار لأنها وثنية والإسلام يجب ما قبله .

ويضاف إلي ما تقدم من أسباب ندرة هذا اللون من الشعر أنه كان يصدر من الشاعر لقبيلته ، أو يكون علي هيئة حديث نفسي يصور عاطفة الشاعر نحو دينه ، ولو سمع هذا الشعر كثير من الناس لحفظوه وعملوا علي إذاعته .

- ومع كل هذا فلم يخل الشعر الجاهلي من تصوير بعض مظاهر الحياة الدينية عندهم فهذا زهير يقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من قريش وجرهم

وهذا امرؤ القيس الذي قال حين استقسم بالأزلام عند (ذي الخلصة) ليقدم علي الحرب بالأخذ بثأر أبيه فنهاه القدح فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتل العداة زوراً

وهو القائل :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها

روى بها من قحول الأرض أيباساً

- وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع شعر أمية بن أبي الصلت قال " ذاك رجل آمن بلسانه وكفر بقلبه " وقد عارض هذا الرجل رسول الله بعد أن جاء الإسلام حسداً ، وقال لما ظهر الرسول إنما كنت أرجو أن أكونه .

ومن أشعاره التي تعبر عن عقيدته وعقيدة قبيلته :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك مجداً وأمجداً - فلم هذا التجاهل من المستشرقين وغيرهم .

وأما أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاقتصادية فهذا تعسف منهم ، فلقد اتصل الشعر الجاهلي بالحياة الاقتصادية ، هذه الحياة التي ارتبطت بحس الشاعر ، وكيف لا وهي التي تساعد المرء علي الحياة الكريمة فضلاً عن أنها تساعده علي الحفاظ علي نفسه وآله ، وتسهل له الأمور الكثيرة في الحياة . فهذا طرفة بن العبد يسرف ماله ويهلكه في الخمر حتي افتقر وتحامته العشيرة يقول :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاقي طريقي ومثلي
إلي أن تحامنتي العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد

- وهذا عروة بن الورد يقول :

دعيني للغني أسعي فإني رأيت الناس شرهم الفقير

- ثم أن سبيل الحياة الاقتصادية بالعقل والفكر والتدبير وهي بعيدة عن العاطفة ، وإذا كانت الحياة الاقتصادية قوامها الناقاة والخيل والأبقار الوحشية فقد وصف ذلك كثير من الشعراء كامرئ القيس ، وزهير وغيرهما ويذكر الشاعر الجاهلي بعض ما استقر عندهم من أمور اقتصادية فيقول :

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصد عند ندي وكما علمت شمائي وتكرمي

- وإذا انتقلنا إلى الحياة السياسية وقول المستشرقين ومن لف لفهم فيها ، فإننا نجد أنه يحق لنا أن نعجب أشعر العجب فالشعر الجاهلي معظمه يصف حياة العرب السياسية كوصف الحروب والصراعات والوقائع والأيام ، ومن ذلك ما جاء في شعر عنتره ، وعمرو بن كلثوم وأشعار امرئ القيس التي قالها وهو بصدد الأخذ بتأر أبيه ، وأشعار المهلهل وزهير بن أبي سلمي ، وكتاب أيام العرب في الجاهلية مملؤ بهذه الأخبار والأشعار ، ونجد ذلك في معلقات بعض الشعراء السابقين ، وكل هذا الشعر يمثل جوانب من حياة العرب السياسية في الجاهلية . من ذلك أبيات زهير في معلقته التي صور فيها فظائع الحرب وويلاتها وأشاد بصنيع السيدين اللذين أصلحا بين المتحاربين من عبس وذبيان وتحملا ديات القتلي يقول :

سعي ساعياً غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشييرة بالدم
تداركتما عيساً وذبيان بعدما تفتانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلنا أن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها علي خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
(٢) أما ما قاله المستشرقون من الناحية اللغوية وأن الشعر جاء بلغة
واحدة ولا يمثل أكثر لغات العرب في الشمال أو في الجنوب
واستدلّاهم بقول أبي عمرو بن العلاء (ما لسان حمير وأقاصي
اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا)

فقيما قالوه تجاهل للهجرات اليمنية إلي الشمال والعكس ، ثم إن
اللغات العربية كان بينها تفاعل وتقارب ومن أراد من الشعراء أن
يظل شعره خالداً كان ينظمه بلغة يفهمها من يسمعون أشعاره في
أسواق العرب التي تقام ، وغير هذا وذاك لقد ظهر أثر التغيرات في
اللغة واللهجات في قلة من الأشعار ومن ذلك ما ذكر في كلامنا
السابق عن بعض اللهجات عند العرب كالعجعة ، والكشكشة
والعنعة إلخ .

وضح إذن أن في الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلي قبوله ، وفيه
موثوق به ، وهو علي درجات ؛ منه ما أجمع عليه الرواة ، ومنه ما
رواد ثقافت لا شك في ثقنتهم وأمانتهم ، وقد يغلب المنتحل الموثوق به

ولكن ذلك لا يخرج بنا عن إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلي بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

الفصل الثاني

أنواع الشعر الجاهلي ، واللون السائد فيه

obeikandi.com

✽ ألوان الشعر الجاهلي

يقسم النقاد أنواع الشعر في الآداب العالمية منذ عصر الإغريق
القدماء إلى أربعة اقتسام :

١- شعر قصصي ٢- شعر تعليمي ٣- شعر غنائي

٤- شعر تمثيلي

(١) قال شعر القصصي : هو الذي يتناول فيه الشاعر حدثاً واقعياً أو
خيالياً فيصور جوانبه وشخصياته ، ويلتزم فيه الشاعر الحيدة ، فلا
يقحم فيه مشاعره وأهواءه ، وما هو حينئذ إلا قاص أو حاك بأسلوبه
هو فقط ، فهو إذن يعني قبل كل شيء بتصوير الأحداث الكبرى
وسرد مظاهر البطولة .

ويمتاز هذا اللون من الشعر بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد
إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تتعقد حول
بطل كبير وبعض الأبطال الثانويين من حوله ، والقصيدة في هذا
الوضع قصة إلا أنها كتبت شعراً ، يراعى فيها التسلسل القصصي
والانتقال المحكم بين أجزائها ويغلب عليها الخيال لذلك كانت تكثر
فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وتظهر فيها الآلهة وخصوصاً عند
الإغريق ومن ذلك :

الإلياذة لهوميروس " وهو إغريقي " ، الإنياذة لفرجيل " وهو رومي " والشهنامه للفردوسي " وهو فارسي " وهذا اللون من الشعر لم يعرفه الجاهليون بهذه الكيفية .

(٢) والشعر التعليمي : وهو الذي ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو معين مبينا قواعدها وأصولها وأمثلتها وأحكامها الخ

ومثال ذلك قصيدة " الأعمال والأيام " للشاعر اليوناني هزيود التي يصور فيها فصول السنة ، والحياة الريفية ، وقصيدة " فن الشعر " للشاعر الروماني هوراس التي نظمها في قواعد الشعر ونقده ، ولم تعرف الجاهلية هذا اللون من الشعر أيضاً .

(٣) أما الشعر التمثيلي أو المسرحي : فهو شعر قصصي يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص يتخلله مشاهد ومناظر مختلفة تتضح من خلالها المواقف وتظهر جوانب القصة .

وكذلك لم تعرف الجاهلية ولا الجاهليون هذا اللون من الشعر لأن المسرح يتطلب تجمع واستقرار ، والعرب قبائل رحل لا استقرار لها ولا مجتمع ثابت عندهم ، كما أنهم كانوا يستنكفون أن يقلد الرجل شخصية رجل غيره .

٤) لم يبق إلا النوع الرابع والأخير وهو الشعر الغنائي :

وهو الذي يصدر عن النفس لتتغنى به في خلوتها ووحشتها ، وتجد فيه متنفساً لآلامها وآمالها ، فالشاعر يصور في هذا النوع من الشعر عواطفه وخواطره وخلجات نفسه وشعوره الداخلي سواء فيما يتعلق بالطبيعة وما ورائها أو الحب أو الدين أو الوطنية أو كل ما يجيش في النفوس . وهذا النوع هو الذي شاع وانتشر في الشعر الجاهلي .

- ونحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلي جمعيه غنائي ، إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث أنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذر أو يعاتب ، أو حين يصف أي شيء مما ينبت حوله في جزيرته .

وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث أنه كان يغني غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنى في قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ء لعوب لذينة في العناق

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه (١)

(١) العصر الجاهلي / شوقي ضيف ص ١٩٠ .

ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصفهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنى ببعض شعره مثل السليك بن السلكة ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، والأعشى وكان يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم " الصنج " ولعله من أجل ذلك سمي " صناجة العرب " .
ويقول أبو النجم في وصف قينة :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا

ببعض الذي غنى امرؤ القيس أو عمرو

ويقول حسان :

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

فالعناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلمهم من أجل ذلك عبروا عنه بالإنشاد ، ومنه الحداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم وكان غناء شعبياً عاماً .

ويقترن هذا الشعر المغني عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالزهر والدف والصنج .

وكانت نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقة التي تقف وتردد خلف المغني الآن ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على المزاهر ، ففي الطبري والأغاني أن هنداً بنت عتبة ، ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغني في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها :

إن تكلبوا نعائق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

- ومعنى كل ما سبق أن الشعر في الجاهلية كان يصحب بالغناء والموسيقى فهو شعر غنائي تام ، نظم في جو غنائي مشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي .

- ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر الجاهلي وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة بينة ، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها ، وقبلها التصريح في مطالع القصائد ، وما كان يعتمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم على شاكلة قول امرئ القيس :

مكر مكر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول لبيد في مستهل معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها

بمني تأبد غولها فرجامها

ولا نشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء .

الخلاصة : أن الشعر الجاهلي لم يعرف الأنواع الثلاثة الأولى من الشعر ، وهي الشعر القصصي والشعر التعليمي والشعر التمثيلي

وإن وجد فيه بعض الشعر القصصي الذي يصور بعض جوانب الحياة الاجتماعية والعاطفية ويصفها إلا أنه لم يكن يصف أحداثاً عظاماً ولا يذكر آلهة ولا يستوحىها أو يستلهما في بطولات علي نحو ما كان عند الإغريق لذا كان القصص العربي في الشعر الجاهلي يناسب البيئة العربية ويخالف الملاحم الطويلة المعروفة لذلك قلنا أن الشعر القصصي غير موجود عند الجاهليين .

- ولعل هذه الأنواع الثلاثة لم توجد في الشعر الجاهلي لأن شعرهم منظومات قصيرة قلماً تتجاوز مائة بيت ، كذلك فإن الشعر الجاهلي شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، علي حين أن الضروب الثلاثة الأولى جميعاً تستدعي الموضوعية لا الذاتية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم ، أو حين يمثل ، فهو في كل ذلك يغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصي تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويهِ أو تمثيلي مسرحي يؤديه متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

الفصل الثالث

خصائص الشعر الجاهلي

- في الألفاظ والأساليب

- في المعاني والأخيلة

- في الأعراس الشعرية

- منهج القصيدة الجاهلية

obeikandi.com

خصائص الشعر الجاهلي

أولاً : في الألفاظ والأساليب :

من أهم ما يلاحظ علي الشعر الجاهلي من الناحية اللفظية والأسلوبية من خصائص :

- ١- إحكام الصياغة ، وتمام التراكيب وضبطها ضبطاً دقيقاً بحيث لا يكون فيها قصور ولا عجز في تأدية معانيها ومدلولاتها .
- ٢- الفصاحة والسلامة والبعد عن اللحن والركاكة والضعف بأنواعه .

- ٣- الاستعانة بطائفة من المحسنات البلاغية اللفظية والمعنوية بغرض التأثير في من سامعهم ومن هذه المحسنات : التشبيه الاستعارة بفرعها ، الجناس ، الطباق إلخ
- ٤- قوة الألفاظ وسلامة الأسلوب من التكلف والصنعة والقصد إلي التعبير الحقيقي ، والخيال الطريف .

ثانياً : في المعاني والأخيلة .

- ١- القرب والوضوح والبساطة ، والبعد عن التكلف والتعمق والإغراق في الخيال والبعد كذلك عن المبالغة التي قد تخرج بالمعني عند الحدود المعتدلة .

٢- الصدق في التعبير ، ونقل الأشياء المحيطة نقلاً أميناً يبقي علي حقيقتها وعدم الجنوح بالخيال بما يخرج الشيء ويحيله عن حقيقته ، فتري الشاعر في الجاهلية يعترف بهزيمة قومه إن هزموا ، وبإدباره إن أدبر ، فالشعراء الجاهليون لا يبدلون الحقائق غالباً .

٣- الدقة في تصوير البيئة وما فيها تصويراً أميناً بعيداً عن المبالغة والمغالة حتي أصبح شعر الجاهليين وبنقة قيمة تعكس ما كان في البيئة الجاهلية .

٤- الخيال عند البدوي إنما يأتي لتوضيح المعاني وكشفها وتجسيما وتشخيصها ، وهذه النزعة جعلت الجاهلي بعيداً عن العمق والتحليل تري ذلك في تشبيهاته للمرأة والسيف والرمح والطبيعة .

٥- اعتمد الجاهلي في خيالاته علي البيئة ، ووحدة المصدر جعلتهم لا يتسعون في المعاني بل عم التشابه وظهر التقارب بينهم .

٦- طول القصيدة الجاهلية جعلها تلم بمواضيع وأغراض كثيرة قد لا يكون بينها ترابط عضوي ، فالحرية والتنقل والفضاء الواسع وما يجمع من أمور لا رابط بينها ، كل ذلك كان له أثره في عدم ترتيب الأفكار ، وقد كان الشاعر ينتقل من معني إلي معني آخر من غير تمهيد حتي أصبحت القصيدة العربية في العصر الجاهلي مجموعة من الأغراض

ثالثاً : أغراض الشعر الجاهلي

الشعر ديوان العرب ، وأعلى مراتب الأدب ، وأمهات دواعيه أربع هي : الرغبة والرغبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق والنسيب " الغزل " ومع الغضب يكون الهجاء والعتاب الموجه .

- وقال قوم الشعر نوعان : مدح وهجاء ، فمع المدح يكون الرثاء والفخر والتشبيب ، وما يتعلق بذلك من محمود الوصف وممدوح النعت وحسن التشبيه ، وكذلك ما فيه تربية الأخلاق كالأمثال والحكم والترغيب في القناعة والزهد في الدنيا .

ومع الهجاء يكون ضد ذلك كله ، ويأتي العتاب طرف لكل من النوعين فالمادح المحب يعاتب والذام الكاره المبغض يعاتب أيضاً .

- وقد تنوعت فنون الشعر الجاهلي تبعاً لتنوع المشاعر و تغير العواطف من حب ، وبعض وخوف وإعجاب وحزن ولذا ظهر من الفنون (الأغراض الشعرية) الغزل ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوعيد ، والإنذار ، والاعتذار ، والوصف والخمريات ، والحكمة وسواها من الأغراض .

- وكان الشاعر العربي يتوخى المقام المناسب ليسوق فيه شعره منتقياً لذلك القافية الملائمة ، والأفكار والمعاني والأخيلة ، والألفاظ والأساليب التي تتناسب مع ما يسوق من شعر يناسب المقام .

وفيما يلي عرض لتلك الأغراض :

(١) المدح

هو ذكر محاسن المرء وصفائحه ، ويجعل منها في المقام الأول ما يهتم به البدوي من مآثر كالكرم والشجاعة والمروءة والعفة ... ألخ ، وكان الشاعر لا يمدح إلا مرتبطاً بالقبيلة ، فهو يمدح ما تري القبيلة مدحه ممن قدم لها معروفاً أو مساعدة أو غير ذلك مما يستدعي المدح .

قال ابن رشيق القيرواني (وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب - مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل فإن للملك سامة وضجراً ، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحرّم من لا يريد حرمانه) (١)

- وأفضل ما يكون المدح إذا كان عن عاطفة صادقة دون تملق أو نفاق ، لذا عد زهير بن أبي سلمى أصدق من مدح من

(١) العمدة ج ٢ ص ١٢٨ ط الخامسة دار الجيل سنة ١٩٨١ .

الشعراء الجاهليين لأنه لم يتكسب بشعره ولم يتخذ مدحه سبيلاً للنوال والمنح ، بل كانت مدائحه إعجاباً بصفات نادرة وتزكية لفضائل بارزة ، وصياغة لحكم سائرة فأجاد في شعره وأفاد في حكمه وأخلص في مدحه فأعجب النقاد والبلاغيون بطريقة .

- ومن المدح قول زهير يمدح هرم بن سنان :^(١)

وأبيض فياض يداه غمامة علي معتفيه ما تغيب نوافقه^(٢)
بكرت عليه غدوة فوجدته قعوداً لديه بالصريم عواذله^(٣)
يفدینه طوراً وطوراً يلمنه وأعيأ فما يدرين أين مخاتله
فأعرضن عنه عن كريم مرزأ عزوم علي الأمر الذي هو فاعله^(٤)
أخي ثقة لا يتلف الخمر ماله ولكن قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وذي نسب ناء بعيد وصلاته بمال ولا يدري بأنك واصله
فالشاعر انتقي معانيه بدقة ، وحرص علي إعلاء سجايها ممدوحه حتي جعله من شدة كرمه وجوده كأنك تعطيه ما تسأله ، فالممدوح يعطي ولا يمن ، ولا يتظاهر بالعطاء طلباً للشهرة أو التملق ، وهذه

^(١) ديوان زهير ص ١٤١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٤٤ .

^(٢) تغيب : تنقطع

^(٣) الصريم : الصبح أو هو جمع صريمة وهي رملة تنقطع من معظم الرمل .

^(٤) مرزأ : مصاب في ماله

الصورة قد لا توجد إلا في القليل النادر من الناس ، فمنتهي الكرم
ومبلغ الجود أن تحس بسرور ورضا العاطي حين تسأله فيعطيك .
- وكثيراً ما تغني الشعراء بكريم الشيم ، وكل ما اتخذه مثلاً رفيعاً
لهم في حياتهم وسلوكهم من كرم ووفاء وغيرهما من الفضائل
الحميدة علي شاكلة قول ربيعة بن مقروم :

وإن تسأليني فإني امرؤ	أهين اللئيم وأحبو الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات	وأرضي الخليل وأروي الندىما
ويحمد بذلي له معترف	إذا ذم من يعتفيه اللئىما ^(١)
وأجزى القروض وفاء بها	ببؤس ببئسى ونعمى نعيماً ^(٢)
وقومي فإن أنت كذبتني	بقولي فاسئل بقومي عيما
يهينون في الحق أموالهم	إذا اللزبات اتحنين المسمىما ^(٣)
طوال الرماح غداة الصباح	ذوو نجدة يمنعون الحرىما

- ولا نصل إلي أواخر العصر الجاهلي حتي يتخذ الشعراء المديح
وسيلة إلي الكسب ، فهم يقدمون به علي السادة المبرزين وملوك
المنادرة والغاسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة ،
وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتي تحقق لهم

(١) المعتفي : السائل في غير طلب

(٢) البؤس والبئيس : بمعنى واحد والمعنى أنه يجزي السينة بمثلها وكذلك الحسنه

(٣) اللزبات : الشدائد ، المسمى : الكثير من الأبل والغنم وهي مشتقة من السائلة

ما يريدون من التأثير في ممدوحهم ، واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان بن ثابت .

- ولم يلبث هذا الفن أن أصبح حرفة خالصة للتكسب بوصوله إلي الأعرشي ، فلم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخم شأنه معرضاً بالسؤال .

(٢) الفخر والحماسة

الافتخار هو المديح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار^(١) ، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار غير أن الفخر في الجاهلية كان شديد الصلة بالبيئة الجاهلية ، فقد كان العربي يفتخر بقوته وظلمه وكثرة عدد أفراد قبيلته وسلاحه واستعباده للغير ، وعن الفخر والحماسة يقول د / شوقي ضيف :

(ولا نبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفذ قصائدهم ، فقد سعرتهم الحروب ، وأمدتها شعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها ، ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح في كل مكان بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه واقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوي فيه من حماسة يدور علي كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعزز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضيق الخناق علي أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبرها في الملمات وكرمها في الجذب وحمائتها للجار وإغاثتها للملهوف . (٢)

(١) العمدة جـ ٢ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) العصر الجاهلي ص ٢٠٢ .

ومن أمثلة شعر الحماسة قول المرقرش الأكبر (١)

إن تبدر غاية يوماً لمكرمة
وليس يهلك منا سيد أبداً
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا
شعث متادمنا تغلي مراجلنا
إني لمن معشر أفني أوائلهم
إذا الكماه تنحوا أن يصيبهم
ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم

- ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول فيها :

متي ننقل إلي قوم رحاتا
نطاعن ما تراخي الناس عنا
بسمر من قنا الخطي لدن
نشق بها رؤوس القوم شقاً
كان جماجم الأبطال فيها
ورثنا المجد قد علمت معد

يكونوا في اللقاء لها طحيناً
ونضرب بالسيوف إذا غشينا
ذوابل أو ببيض يعتلينا
ونخليها الرقاب فتختلينا
وسوق بالأماعز يرتميناً (٢)
نطاعن دونه حتي يبيننا

(١) شاعر جاهلي اسمه : عوف بن سعد وهو عم المرقرش الأصغر واسمه عمرو بن حرملة .

(٢) الأماعز : الأراضي الصلبة ، الوسوق جمع وسق وهو الحمل

ونحن إذا عماد الحي خرت علي الأخفاض نمنع من يلينا

نجد رؤسهم في غير وتر فما يدرون ماذا يتكونا

- والمعلقة جميعها صياح شديد علي هذا النحو الذي رفع فيه قبيلته تغلب علي كل من حولها في نجد شرقها وغربها . فكل من حدثته نفسه بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار .

- وقد يتوجه الشاعر بالفخر إلي نفسه ليبين مدي شجاعته ومنزلته في القبيلة وحاجة القبيلة إليه ليحميها ، ويبث الهيبة في نفوس أقرانه وذلك مثل قول عنتره :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بنر في لبان الأدهم

ولقد شقي نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

- ويتضح من شعر الفخر في البيئة الجاهلية أن العربي كان يحب الظهور ، والتفوق علي غيره والإعجاب الشديد بنفسه حتي استولي ذلك علي نفوس الشعراء وسيطر عليهم إلي حد كبير .

(٣) الرثاء

من أهم الموضوعات التي أطيلت فيها القصائد الجاهلية ، والقصيدة في هذا الموضوع تسمى مرثية ، وفي الشعر الجاهلي مرث تعد من أجمل وأفخم ما في الأدب العربي ويروي الرواة أن بعض العرب سئلوا : ما بال أفضل أشعاركم الرثاء ؟ فأجابوا : لأننا نقولها وقلوبنا موجعة ، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة خالية من كل تكلف . والرثاء هو بكاء الميت وإظهار الحزن واللوعة لفقده ، وذلك بتعداد مناقبه وإظهار مآثره والإشادة بما كان له من خلال كريمة ، وما تركه من فراغ لا يشغل بعد هذا الفقد ، وقد يؤثر الجو النفسي في الشاعر فيخرج من الإطار المتقدم كأن يكون الميت قتيلاً ، وما أكثر ذلك في الجاهلية فيخرج الرثاء إلي التحمس والإثارة والتهديد والوعيد ، وقد يقوم الرثاء علي الندب والتأبين والعزاء وتعداد المآثر .

- وكانت النساء تشارك الرجال في هذا الندب ، فقد كن ما يزلن ينحن علي القتيل حتي تتأثر له القبيلة ، ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) كما نسميه الآن ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبتها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلي عكاظ فتنذب أخويها صخرأ ومعاوية وكانت هند بنت عتبة أم معاوية ابن أبي سفيان تحكيها (تقلدها) نائحة أباه . وكن يشقن جيوبهن

علي القَتيل أو الميت ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه ماتماً من العويل والبكاء .

- وخير مثال علي ذلك هو : الخنساء فقد قتل أخوها معاوية في بعض المعارك ، فارتفع نحيبها وبكاؤها عليه ، وقتل أيضا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة .

- ومن روائع ما ندبت به أباها صخرا :

ألا تبكيان لصخر الندي	أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان الفتى السيدا	ألا تبكيان الجريء الجميل
ساد عشيرته أمردا	طويل النجاد رفيع العماد
إلي المجد مد إليه يدا	إذا القوم مدوا بأيديهم
من المجد ثم مضي مصعدا	فقال الذي فوق أيديهم

وعن هذا الغرض يقول ابن رشيقي : (وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل علي أن المقصود به ميت مثل : كان أو عد مناقبه ، أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام)^(١)

- ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحس داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره

^(١) العمدة ج ٢ ص ١١٧-١١٨

ووضعه في مدارج الكفن ثم لحده ودفنه ومن ذلك قول الشاعر
الجاهلي (١) :

هل للفتي من بنات الدهر من واق أم هل من حمام الموت من راق
قد رجلوني وما رجلت من شعث وألبسوني ثياباً غير أخلاق
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ليسندوا في ضريح التراب أطباقي
- وكان الشعراء حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه
حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك
وغير ملوك .

علي هذا النحو ألم الشعراء الجاهليون بجوانب الرثاء من نذب وتأبين
وعزاء ، وكان رثاؤهم غالبا يتعلق بأفراد لا بمجموعات .

(١) الأبيات تنسب للمزق العبدى أو ليزيد بن الحذاق

(٤) الغزل

وهو إلف النساء والميل إلي ما يوافقهن ، ووصف محاسنهن الخلقية ومفاتنهن الجمالية ، واجترار ما مضي من ذكريات قامت بين الشاعر والمرأة من وصل وهجران وعطاء وحرمان والتعبير عن كل ما يعتمل في نفس العاشق من بتاريح الهوي والحب .

- والغزل والنسيب والتشبيب بمعنى واحد والأصل فيهم جميعا ترقيق الشعر بذكر المرأة واستعادة ذكريات العشق والوله .

قال ابن رشيق في باب النسيب : (أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار شفاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرصين) (١)

- وأول صورة للغزل تقابلنا في الشعر الجاهلي هي (بكاء الديار القديمة) أو بكاء الأطلال وهي الديار التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولي ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع .

وقد كانت الأعراف الموجودة في البيئة الجاهلية لها أثرها في مسابرة هذا الغرض ، فاحترام الأعراض والحفاظ علي الشرف جعل من يتغزل منهم يبتعد في غزله عن الفحش ويدنو من العفاف إلا القلة من الشعراء الذين نراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ،

(١) العمدة ج ٢ ص ٩٣ .

ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له كالخد والجبين والعنق والصدر والعين والقم والريق والمعصم والشعر الخ كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطبيها وحيائها وعفتها .

من هنا يتضح أن الغزل الجاهلي دار بين أنواع ثلاثة :

(أ) بكاء الأطلال : وهو مقدمة غزلية كانت تبدأ بها القصيدة الجاهلية ويستهلها الشاعر بذكر المحبوبة وديارها وأيام شبابه معها واتخذ الشعراء تلك العادة في أغلب قصائدهم إن لم يكن كلها حتي سمي فيما بعد " بالغزل الصناعي " ، وذلك لعلم الشاعر العربي أن الحديث عن النساء يستهوي الأسماع ويستمل الأذان قبل القلوب فكان يبدأ قصيدته بتلك المقدمة الغزلية الطويلة ثم يدلف منها إلي غرضه الأساسي .

(ب) غزل عفيف : وهو ذكر العواطف المنفصلة التي ألهمت مشاعر الحنين في نفس الشاعر الجاهلي ، والتعرض للمرأة بالوصف دون التجريح أو التصريح بما يتنافي مع صون الأعراض وحفظها .
ووجدنا الشعراء في ذلك كثيراً ما يقفون طويلاً يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموع وذلك علي شاكلة قول الشاعر :

فظللت من فرط الصباية والهوي طرفاً فؤادك مثل فعل الأيهم^(١)

(١) طرفاً : ينظر هنا وهناك بلا استقرار . والأيهم : المجنون

(ج) الغزل الفاحش : وهو وصف كل مفاتن المرأة دون حرج أو عفة أو حشمة وربما رجع ذلك إلي أنهم كانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم أو يحرم عليهم ذلك ، فتراهم يتعرضون لبعض مغامراتهم مع النساء وهي مغامرات تحول بها بعض الرواة إلي قصص غرامية .

ومما يميز هذا النوع من الغزل أن أساسه المتعة بالمرأة وعدم الوقوف عند حبيبة واحدة يكون وفيأ لها بل يتحول من هذه إلي تلك واصفاً مستبيحاً غير محتشم ، ومن شعراء هذا اللون امرؤ القيس ، والمنخل اليشكري ، والمتقب العبدى - والمرقشان الأصغر والأكبر وطرفة بن العبد.

- وكان لشعراء الجاهلية أسماء تحلو في أفواههم كسلمي وليلي وهند وزينب وسعاد الخ

ومن شعر الغزل قول المنخل اليشكري :

ولقد دخلت علي الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير

فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلي الغدير

ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير (١)

(١) البهير : النجح وتتابع الأنفاس من شدة السعى والجري

(٥) الهجاء

وهو ذكر مثالب المرء وإظهار معايبه قذفاً بالشعر ، وأشد الهجاء ما كان فيه التفصيل ، وأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتجاهل ، وتوسط بين التعريض والتصريح ، وقربت معانيه وسهل حفظه وأسرع تعلقه بالقلب .

وكان اللسان - وما يزال - يفعل بالأعداء فعل السيوف والرماح وقد أدرك الشاعر الجاهلي ذلك فاتخذ من لسانه سلاحاً يقاتل به مع الفرسان والشجعان ونصب من هجائه سهاماً جعل يرمي بها أعداءه من الأشراف والقبائل .

- وكان الشعراء ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ فينشدون أهاجيهم لتذيع ، ويلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار .

- وكان الهجاء الجاهلي يدور علي كل ما يناقض مثلهم التي جمعت في كلمة " المرؤة " وهي تعني - كما سبق - فضائل كثيرة منها الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء ، فإذا هو يخلص القبيلة وأشرفها من كل هذا الفضائل وما يتصل بها ، فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفر في الحروب وتقعده عن الأخذ بثأرها . ولم يقف الشعراء الهجاءون عند ذلك بل كانوا يقذفون في الأعراض ويطعنون في الأنساب متعرضين للأمهات وللزوجات بالإمعان في

الفحش ، وكثيرا ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعي في قومه
زنيم ، وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع في الأعراض .

- وأغلب الهجاء الجاهلي لم تقرد له قصائد خاصة ، بل كان
الشعراء يسوقونه غالباً في وسط وتضاعيف حماستهم وإشاداتهم
بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية .

- ومن أمثلة الهجاء قول الشاعر يهجو النعمان بن المنذر

نعمان إنك خائن خدع يخفي ضميرك غير ما تبدي

وقول الآخر أيضا يهجو النعمان وينسبه إلي غير أبيه :

لعن الله ثم ثني بلعن ابن ذا الصانغ الظلوم الجهولا

يجمع الجيش ذا الألوف ويفزو ثم لا يرزأ العدو قتيلا

ومن أشهر الشعراء الهجائين في الجاهلية ، الحطيئة ، وحسان بن
ثابت وعبد الله بن الزبيري .

ومن أشد الهجاء عندهم قول زهير يهجو آل حصن متجاهلا عليهم

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبات فنحن لكل محصنة هداء

(٦) الاعتذار

وهو الاحتجاج للنفس فيما فعلت ، وإقامة الحجة والأدلة مع التظلم في التضرع والدخول تحت العفو ، وعلي الشاعر أن يكون حكيماً يعرف كيف يأخذ بقلب ولب من يعتذر إليه ، ويلين جانبه ويستجلب رضاه .

- وفن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء .

- ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذي الأقارب ، وقد كان عتابهم واعتذارهم قليل إذا قيس بأي فن آخر من فنون الشعر التي راجت عندهم .

ومن أشهر شعراء هذا الفن النابغة الذبياني ، ومن قصائده التي يمدح فيها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه قوله :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي اهتم منها وانصب

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة بلاغك الواشي أغش وأكذب

ولكنني كنت امرأ لي جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب

.....

.....

إلي الناس مطلبي به القار أجرب

فلا تتركني بالوعيد كأنني

(٧) الوصف

وهو تطابق التعبير مع الإدراك ، وهو باب جامع مع أبواب الشعر ،
فالمديح وصف محاسن الناس ، والهجاء وصف مساوئهم ، والنسيب
وصف جمال المرأة وما يثيره في النفس من عاطفة وهلم جرا .

- ومن النقاد من قال : إن الشعر كله وصف ، وهو كلام جائر لأن
هذا التعميم لا ينفعا بشئ إذا كنا نريد البحث عن الأغراض التي
يرمي إليها الشعراء في نظم أشعارهم والموضوعات التي تناولوها ،
فمما لا شك فيه أن هنالك أشعاراً قصد بها الوصف لذاته ، وهي
مستقلة تماماً عن سائر أبواب الشعر الأخرى .

- والأشياء التي تناولها الشعراء بالوصف تنقسم إلى قسمين :

* الظواهر الطبيعية التي ليس للإنسان يد في إيجادها .

* والأشياء التي هي من صنع الإنسان .

- وقد كان للظواهر الطبيعية المكان الأول في الوصف عند شعراء
الجاهلية ، ولم يكن من المعقول أن يكثروا من وصف أشياء شديدة
الارتباط بالحضارة ، وهم بعد في عهد البداوة أو قريبون منه .

وأكثر ما تجده في أشعارهم من وصف الأشياء المصنوعة ما نظموه
في وصف أدوات القتال كالسيف والرمح والدرع والقيس والسهام
وما شاكل ذلك .

- أما الظاهرات الطبيعية التي أكثرها من وصفها فهي بالطبع مما يتفق والبيئة التي عاشوا في ظلها ، أي بيئة الجزيرة العربية ، وهذه الظاهرات تنقسم هي أيضاً إلى قسمين :

الأول : نستطيع أن نسميه الطبيعة الساكنة أو الهامدة كالصحراء والجبال والرمال والسماء وما يجري هذا المجرى .

أما الثاني : فيشتمل على الكائنات الحية المتحركة وهي ما اشتملت عليه بيئتهم من دواب وحشية أو مستأنسة صغرت أو كبرت كالإبل والخيل والحمر الوحشية والنعام والغزلان الخ

- وليس من شك في أن الطبيعة الحية المتحركة لها المكان الأول في الشعر الجاهلي وللإبل المكان الأول في الوصف كله ، فشعراء ذلك العهد كانوا يتوخون الإيجاز إذا وصفوا الصحراء أو الريح أو الليل أو القبيظ كقول الشاعر في الليل :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل خيوط الفتل شدت ببذيل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلي صم جندل

- ولكنهم كانوا يسهبون ويطنبون إذا وصفوا الناقة أو الفرس علي نحو ما هو معروف عن طرفة بن العبد في وصفه لناقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير .

ولامرئ القيس قطعة بديعة في معلقته يصف فيها فرسه الذي اتخذ للصيد وفيها يقول :

له أبطلا ظبي وساقا نعامة
ضليع إذا استدبرته سد فرجه
وإرخاء سرحان وتقريب تنقل^(١)
بضائف فويق الأرض ليس بأعزل
مداك عروس أو صلابة حنظل
وتلك القطعة هي التي بدأها بقوله عن فرسه أيضا :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
مكر مفر مقبل مدبر معا
بمنجرد قيد الأوابد هيكل
كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه
ومن الذين أجادوا في وصف فرسه أيضا عنتره إذ يقول :

هلا سالتني الخيل يا ابنة مالك
إذ لا أزال علي رحالة سابح
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
نهد تعاوره الكماء مكرم
ياوي إلي حصد القصي عرمرم
أغشي الوغي وأعف عند المغنم
نلمح من الأبيات السابقة سواء لامرئ القيس أو عنتره أنهما من شدة
وصفها لحصانيتها أنك في حضرة تمثالين منحوتين بدقة لهذين
الفرسين وذلك من روعة التشكيل والتكوين التي ألح عليها كل شاعر
في وصف فرسه .

(١) أبطلا الظبي : خاصرتاه ، وإرخاء سرحان : سير الذئب ، وتقريب تنقل : أي قفز

(٨) الحكمة

وهي ثبر غور الأشياء ومعرفتها والنظر إليها نظرة صحيحة عن طريق التجربة والخبرة ، والغرض من هذه الحكمة وهدفها هو النصيحة والموعظة ، فالشاعر ما يزال يدلي في تضاعيف قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه إلي تقديم وصية لابنيه علي نحو ما صنع عمرو بن الأهتم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله :

وإن المجد أوله و عور ومصدر غبه كرم وخير
وممن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقة بن عبده ومن شعر الأخير في الحكمة :

الحمد لا يشتري إلا له ثمن مما يضمن به الأقوام معلوم
والجود نافية للمال مهلكة والبخل باق لأهليه ومذموم
وكل حصن وإن طالت سلامته علي دعائمه لا بد مهذوم
وقد كثرت في شعر طرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة أيضا ومن شعر طرفة في الحكمة قوله :

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن ناصح منك يوماً دنا فلا تنأ عنه ولا تقصه
وإن باب أمر عليك التوي فشاور ليبيباً ولا تقصه
وذو الحق لا تنقصن حقه فإن القطيعة في نقصه

ولا تذكر الدهر في مجلس حديثاً إذا أنت لم تحصه
ولا تحرصن قرب امرئ حريص مضاع علي حرصه
ويلخص لنا الشاعر الجاهلي رأي الجاهليين في المرأة وما تطلبه من
الرجل فيقول :

فإن تسألوني بالنساء فإني بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب
ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجدتها في معقبة عبيد بن
الأبرص وفيها يقول :

وكل ذي غيبة ينوب وغائب الموت لا ينوب
وهكذا نجد الحكمة في الشعر منثورة في تضاعيف الأغراض
الأخرى ، والحكمة تدل علي حنكة الجاهلي وطول تجربته ومعرفته
الصحيحة بالأشياء .

- وهناك أغراض أخرى للشعر الجاهلي لم يقف عندها النقاد العرب
ربما لقلتها بالنسبة للأغراض الأخرى ، ومن هذه الأغراض العتاب ،
الخمريات ، شرح الفكاهة والمرح ، السخرية إلي غير ذلك من
الأغراض التي لم يفردها لها النقاد أبواباً خاصة في العصر الجاهلي .

obeikandi.com

الفصل الرابع

مدارس الشجر الجمالي

obeikandi.com

* مدارتي الشعر الجاهلي

(١) مدرسة شعراء المعلقات

المعلقات هي مجموعة من القصائد الطوال الجيدة التي كانت أوفر حظاً من بين الشعر الجاهلي بالحفظ والعناية ، وهذه المعلقات هي لطائفة من الشعراء الجاهلين عرفوا بالإجادة لذا تعد المعلقات من أجود وأروع ما وصل إلينا من التراث العربي طوال هذه الأزمنة ، كما تعد من أهم وثائق الشعر الجاهلي التي بلغت شهرتها وشيوعها حداً كبيراً .

* مدلول لفظة معلقات .

اختلف المؤرخون في مدلول لفظة " معلقات " :

(١) يرى جمهور المؤرخين أن لفظة معلقات جاءت من أن العرب اختارت هذه القصائد الطويلة الجيدة ثم كتبتها بماء الذهب علي القباطي " نوع من القماش " ثم علقتها علي جدران الكعبة أو بداخلها إعجاباً بها وإشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها إلي يوم فتح مكة ، وذهب البعض الآخر في حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام .

- إذن يرى جمهور المؤرخين أن لفظة معلقات أخذت من تعليق هذه القصائد علي الكعبة وهو الرأي الراجح .

(٢) يري الخطيب التبريزي أن كلمة معلقات مأخوذة من تعلق الأذهان بها ، فيقول إن لفظة معلقات جاءت من أنها علقت بأذهان صغار الجاهليين وكبارهم ورؤسائهم ومرؤسيهم وذلك لشدة عنايتهم بها .

(٣) يري أبو جعفر النحاس ، وهو شارح من شراح المعلقات ، أن لفظة معلقات مأخوذة من تعليقها في خزانة الملك ، وهو بذلك ينكر تعليقها علي الكعبة ، فيقول في شرحه للمعلقات (إن العرب كان أكثرهم يجتمعون بعكاظ ويتناشدون الأشعار فإذا استحسن الملك القصيدة قال : علقوها وأثبتوها في خزانتني) ويقصد بالملك هنا النعمان بن المنذر الذي كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول .

- إذن يشترك أبو جعفر النحاس مع جمهور المؤرخين في أن لفظة معلقات جاءت من (التعليق) ولكن المؤرخين يرون أنها كانت تعلق علي الكعبة ، أما هو فيري أنها كانت تعلق في خزانة الملك .

(٤) يري بعض المستشرقين وأبرزهم المستشرق الألماني " نولدكي " ^(١) أن لفظة معلقات مأخوذة من لفظ (علق) وهو الشئ النفيس وأنها سميت بذلك الاسم لنفاستها تشبيها لها بالقلائد النفيسة التي تعلق في النحور " الصدور " - والذي يميل إليه الكثير من الباحثين والكتاب أن التعليق كان علي الكعبة ، يؤيد ذلك أن تعليق الصحائف الخطيرة علي الكعبة كان سنة متبعة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام ، ومن ذلك تعليق قريش الصحفية التي قاطعوا بها بني هاشم وعبد المطلب وذلك لحمايتهم لرسول الله " صلي الله عليه وسلم " حين أصر علي الدعوة إلي الله ولم ينزل علي رأيهم ، وكذلك تعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلي ولديه الأمين والمأمون .

* بعض أسماء المعلقات

عرفت المعلقات في الأدب الجاهلي بعدة أسماء منها :
(١) المعلقات : وقد مضي الحديث عنها وعن سبب تسميتها بهذا الاسم علي ما فيه من خلاف في الاشتقاق

^(١) وضع نولدكي كتابا في هذا الموضوع رجع فيه أن المعلقات معناها المنتخبات وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل علي ذلك بان من أسمائها السموط ومن معاني السموط القلائد . ينظر . تاريخ الأدب العربي - الزيات ص ٣٤ هامش .

(٢) المذهبات : وهذا الاسم مأخوذ من كتابة المعلقات بماء الذهب لجودتها ونفاستها .

- وهذه التسمية (المذهبات) أوردها ابن قتيبة في كتابة (الشعراء والشعراء) أثناء حديثه عن ترجمة عنتر بن شداد العبسي فقال عن معلقته : (وهي أجود شعره وكانوا يسمونها مذهبة) .

- وذكر ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه " العقد الفريد " تلك التسمية وذكر أن المعلقات كتبت بماء الذهب في نوع من القماش يسمى " القباطي " المدرجة ثم علقت .

كما ذكر نفس التسمية ابن رشيح القيرواني في كتابه " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " فقال : (كانت المعلقات تسمى المذهبات) ونقل جلال الدين السيوطي عنه ذلك في كتابه " المزهر " (٣) السموط :

وهذا الاسم مأخوذ من السمط : وهو القلادة التي هي أطول من المخنقة والسمط أيضا هو خيظ النظم والعقد لأنه يعلق . والسمط مفرد جمعه سموط . وإذا كانت القلادة ذات نظمين فهي ذات سمطين وأنشد لطرفة :

وفي الحي أحوي ينقض المرء شادن

مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد (١)

(١) لسان العرب جـ ٣ ص ٢٠٩٣ ط دار المعارف .

وهذه التسمية " سموط " تنسب إلي حماد الراوية ، وتبعه فيها
المفضل الضبي صاحب " المفضليات " ثم نقلها عنهما أبو زيد
القرشي صاحب " جمهرة أشعار العرب " فقال بعد أن فرغ من ذكر
أصحاب المعلقات : (هؤلاء أصحاب السبع الطوال ، التي تسميها
العرب (السموط) .

(٤) السبع الطوال

وتنسب هذه التسمية إلي " حماد الراوية أيضا " وسماها كذلك
لطولها، وقد يطلق عليها أحيانا " الطوال " فقط دون السبع وكذلك
تنسب تسمية " السبع الطوال " إلي أبي زيد القرشي فقد ذكرها في
جمهرته ، وذكرها كذلك صاحب كتاب " المثل السائر في أدب
الكاتب والشاعر " وهو ابن الأثير .

- وقد أضاف ابن الأنباري إلي التسمية كلمة " الجاهليات " فجاء
شرحه للمعلقات بعنوان (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)
- وفي النهاية تبقى تسمية " المعلقات " هي صاحبة الحظ الأوفر من
الشهرة والذیوع رغم تعدد التسميات فلم تلق تسمية أخرى نفس شهرة
تسمية " المعلقات " ولذلك تناولتها الألسنة والأقلام وتظل هي الأشهر
إلي يومنا هذا .

عدد المعلقات

لأن الاعتماد كان علي الرواية الشفوية نجد أن المؤرخين القدامي اختلفوا في عدد المعلقات

- فمنهم من قال إنها سبع قصائد
 - ومنهم من قال إنها تسع
 - ومنهم من قال إنها عشر
 - ولكن تظل الأكثرية دائماً علي أنها سبع لا تسع ولا عشر .
- وهي :

الأولي : لامرئ القيس ومطلعها :

قفا نبك من نكري حبيب ومنزل

بسقط اللوي بين الدخول فحومل

الثانية : لطرفة بن العبد ومطلعها :

نخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

الثالثة : لزهير بن أبي سلمي ومطلعها :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتكلم

الرابعة : للبيد بن ربيعة ومطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمني تأبد غولها فرجامها

الخامسة : لعمر بن كلثوم ومطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

السادسة : لعنترة العبسي ومطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

السابعة : للحارث بن حلزة ومطلعها :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

* متي جمعت المعلقات ؟

يرى المؤرخون أن المعلقات قد جمعت في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي الأول . وأن أول من جمع هذه القصائد السبع هو " حماد عجرد " المعروف بحماد الراوية المتوفي سنة ١٥٥هـ ولكن يبقى الخلاف بين الشراح وأصحاب الاختيارات حول الشعراء السبع أصحاب المعلقات .

(١) فالمشهور عند أغلب المؤرخين والشراح أن الشعراء السبع أصحاب المعلقات هم :

امرؤ القيس ، طرفه ، زهير ، لبيد ، عنتره ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة .

(٢) ولكن أبا زيد القرشي صاحب كتاب " جمهرة أشعار العرب " قد افترض اختياراته بالمعلقات وجعل أصحابها سبعة ولكنه غير اثنين من الشعراء السابقين . فالسبعة عنده هم :

امرؤ القيس ، طرفه ، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، النابغة الذبياني ، الأعشى " ميمون بن قيس "

واختار للنابغة الذبياني معلقته التي مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤي وأحجار
واختار للأعشي معلقته التي مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
فمن الملحوظ أن أبا زيد القرشي قد أغفل معلقتي عنتره ، والحارث
ابن حلزة ووضع مكانهما معلقتي النابغة والأعشي ، فهم عنده سبعة
ولكن مع الاختلاف عن السبعة الأوائل في اثنين .

(٣) ثم جاء أبو جعفر النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ وجعل المعلقات
تسعاً هم السبعة الأوائل والاثنان اللذان وضعهما أبو زيد القرشي
وغير فيهما .

فالتسعة عند أبي جعفر هم :

امرؤ القيس ، وطرفه ، وزهير ، ولبيد ، وعنتره ، عمرو بن كلثوم
والحارث بن حلزة ، والنابغة الذبياني ، والأعشي .

بيد أنه أختار قصيدة أخرى للنابغة غير التي اختارها أبو زيد
القرشي فجعل معلقة النابغة القصيدة الدالية التي مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سائلن الأبد

(٤) ثم جاء الخطيب التبريزي فجعل المعلقات عشراً وأصحابها هم
نفس التسعة الذين ذكرهم أبو جعفر النحاس وزاد هو العاشرة وهي
القصيدة البائية لعبيد بن الأبرص والتي مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب
فالتطيبات فالذنوب

فأصحاب المعلقات عنده هم : امرؤ القيس ، طرفه ، زهير ، ليبيد ،
عنتره ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، النابغة الذبياني ،
الأعشي ، عبيد بن الأبرص .

* أهم الشروح للمعلقات

من أهم الشروح للمعلقات سواء بمفردها أو داخلة ضمن أشعار
أخري هي :

- جهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي
 - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري
 - شرح المعلقات التسع لأبي جعفر النحاس
 - شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني
 - المعلقات العشر للخطيب القبريزي
- وهناك كتب تحدثت عنها ، وعن أشعار أخري ولم تخصصها بالحديث
أو الشرح كالمفضليات والأصمعيات والمثل السائر والعقد الفريد
والمزهر الخ .

شراء المملكات

(١) امرؤ القيس

هو امرؤ القيس حنجد بن حجر بن عمرو الكندي (١) ، من قبيلة كندة اليمنية ، ومن بيت السيادة فيها ، فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بني أسد ، وأمه أخت كليب ومهلل ابني ربيعة فشب في حجر النعيم ودرج في مهد الترف والنعمة ، إلا أنه نشأ نشأة الخواة يشرب الخمر ويغازل النساء ويعشق اللهو ، ويقول الشعر ، ثم أطلق لنفسه عنان المجون والخلاعة ، وقعدت به نفسه عما تطمح إليه النفوس الكبيرة ، فطرده أبوه وكان أصغر أولاده ، فخرج في زمرة من أخلاط العرب وعرضهم يذهبون إلي الرياض والغدران يشربون الخمر ويصيدون ويلعبون وظلت تلك حاله حتي جاءه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة إذ أصابوا منه غرة فقتلوه لأن استبد بهم ، وساءت سيرته فيهم ، وروايات قتله متعددة ذكرها صاحب " الأغاني " . ساعتها قال امرؤ القيس : " ضيعني أبي صغيراً وحملني نمة كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر " ثم أقسم إلا يأكل لحماً ولا

(١) تترد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرؤ القيس ، فيسمى حنجداً وعدياً ومليكة ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ، ويلقب بذئ القروح والملك الضليل وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه - ينظر العصر الجاهلي / لشوكي ضيف ص ٢٣٦ .

يشرب خمراً ولا يضع طيباً حتي يقتل من بني أسد مائة ويجز
نواصي مائة (١)

ويظهر أن بني أسد سمعوا بذلك وعلموا به فخافوا العاقبة ، فأرسلوا
إليه وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث :

القصاص ، أو الفدية ، أو الإمهال حتي تضع الحوامل ، ثم تعقد
الرايات وتكون الحرب ، فقال : " لقد علمت العرب أن لا كفاء
لحجر في دم ، وإني لن أعتاض به جماً أو ناقة ، فاكسب بذلك
سبة الأبد ، وفت العضد ، وأما النظرة " الإمهال " فقد أوجبتهما
الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبتها سبباً ، وستعرفون
طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علماً " دماً "
ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير فنهضوا
عنه " وقد علموا أنه طالبهم أي سيحاربهم حتي يأخذ بثأره منهم
وأقبل امرؤ القيس يستنصر القبائل ليأخذ بثأره من بني أسد فنصرته
قبائل وخذلته أخرى حتي لحق ببني أسد وقتل منهم لكثير وجرح
الأكثر وهرب منه بقيتهم فتبعهم ، وفي أثناء ذلك كانت بعض القبائل
تتصره بالمال والرجال ، وكان يستأجر من القبائل رجالاً للقتال معه
فسار بهم إلي بني أسد ويقال إنهم عادوا فتركوه ، وهنا أخذ ملك
الحيرة يولب عليه القبائل ظناً منه أنه يحاول إرجاع ملك آبائه

(١) تاريخ الأدب العربي / الزيات ص ٤٦ بتصنف .

وأجداده فخرج امرؤ القيس شريداً ينتقل بين أمراء قبائل يطلب الجوار حتى دله رجل من بني فزارة علي السموأل بن عادياء ، صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه وطلب منه أن يكتب له إلي الحارث بن جبلة الغساني بالشام ليوصله إلي قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح ومضي حتى انتهى إلي قيصر في القسطنطينية فأكرمه القيصر ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيفاً ، ولما سافر امرؤ القيس بالجيش ، اندس إلي القيصر رجل من بني أسد فقال له : (إن امرأ القيس غوي عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب يفضحها ويفضحك ، فبعثت إليه القيصر حينئذ بحلة موشاة مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن وبالبركة واكتب إلي بأخبارك من منزل منزل " أي في أي مكان تنزل فيه " فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سمي " ذا القروح " فلما وصل إلي " أنقرة " وكانت بلدة من بلاد الروم احتضر بها ، ورأي قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له " عسيب " فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلي جنب المرأة وقبره هناك .

- ذكر رواية أيام العرب أن امرأ القيس كان يعشق عنيزة ابنة عمه شرحبيل وكان لا يحظي بلقائها ووصالها ، فانتظر ظعن الحي " سفرهم " وتخلف عن الرجال حتي إذا ظعنت النساء سبقهن إلي الغدير المسمي " دارة جلجل " واستخفي ثم علم أنهن إذا وردن الماء اغتسلن ، فلما وردت العذاري اللواتي كانت عنيزة فيهن ونضون ثيابهن " خلعتها " وشرعن في الانغماس في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهن وجلس عليها ، ثم حلف علي أن لا يدفع إليهن ثيابهن إلا بعد أن يخرجن إليه عاريات ، فخاصمنه زمنا طويلا من النهار فأبى إلا إمرار قسمه ، فخرجت إليه أوقحن فرمي بثيابها إليها ، ثم تتابعن حتي بقيت عنيزة وأقسمت عليه فقال : يا ابنه الكرام لا بد لك من أن تفعلني مثل ما فعلن ، فخرجت إليه فرأها مقبلة ومدبرة ، فلما لبسن ثيابهن أخذن في عدله " لومه " أو قلن : قد جوعتنا وأخرتنا عن الحي .

فقال لهن : لو عقرت راحلتي أتاكن ؟

قلن : نعم .

فَعَقَرَ راحلته ونحرها ، وجمعت الإماء الحطب وجعلن يشوين اللحم إلي أن شبعن ، وكانت معه ركة فيها خمر فسقاهن منها ، فلما ارتحلن قسمن أمتعته فبقي هو دون راحلة ، فقال لعنيزة : يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تحمليني ، وألحت عليها صواحبا أن تحمله علي مقدم هودجها ، فحملته ، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويشمها وذكر هذه القصة في أثناء القصيدة .

شعره :

نشأ امرؤ القيس في صميم العرب الخالص ، فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلي مساجلة الشعراء فقال الشعر وهو صغير السن .
- وكان جزل الألفاظ كثير الغريب ، جيد السبك ، سريع الخاطر ، بديع الخيال بليغ التشبيه ، وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته ، فاستتبط المعاني الجديدة ، ونهج المذاهب الحديثة ، وارتسمت في شعره محدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه ، فقالوا إنه أول من وقف علي الأطلال وبكي علي الديار .
يؤكد ذلك مطلع معلقته :

ققا نبك من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوي بين الدخول فحومل
فقد عد القدماء هذا المطلع من مبتكراته إذ وقف واستوقف وبكي
وأبكي من معه وذكر الحبيب والمنزل .

- وقالوا إنه أول من شُبب بالنساء وشبههن بالمها والظباء ، وأجاد وصف الليل والخيل لكثرة ركوبه وكثرة أسفاره .

- وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه ، فهو في غزله داعر فاجر يصرح ولا يلمح ، ويكشف ولا يتعفف كمثل قوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخي زمامه ولا تبعديني من جنائك المعلل
فمئلك حبلي قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمانم محمول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقتها لم يحول

- وهو يذكر في جزء كبير من معلقته مثل هذه الأبيات وأكثر منها تصريحاً أما كرمه فكمثل كرم الملوك يذبح راحلته للعذاري ويذهب للصيد فيصطاد ويتركه لأصحابه يأكلون غير عابئ ولا مهتم ولا شحيح ، حيث يقول :

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل
فعادي عداً بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماء فينسل
فظل طهارة اللحم من بين منضح صفيف شواء أو قدير معجل

- أما وصفه ففيه دقة ناحتي التماثيل حتي يخيل إليك وأن تسمع وصفه أنك تنظر إلي تمثال أمامك واضحة فيه كل التفاصيل الدقيقة .

تجلي ذلك في وصفه لليل ، وفي وصفه لفرسه الخ

إذ يقول :

وليل كموج البحر أرخي سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطي بصلبه وأردف أعجازا وناء بكامل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيذبل
فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي ويحس وأنه
طال وأسرف في الطول حتى ليظن أن نجومه شدت بأحبال إلي
الجبال فهي لا تتحرك ولا تزول .

وعلي مثل هذا النسق تسير مطولته في العديد من الأغراض الشعرية
وفيما سبق ما يدلك علي قيمة امرئ القيس فهو الذي نهج للشعراء
الجاهليين الحديث في العديد من الأغراض اخترعها هو ، لذا يعد أبا
للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه فقد استوي عنده في صورة
رائعة ، سواء من حيث سبقه إلي فنون أجاد فيها ، أو من حيث
قدرته علي الوصف والتشبيه الخ .

(٢) طرفة بن العبد

الشاعر طرفة : هو عمرو بن العبد بن سفيان يمتد نسبه إلي بكر بن وائل ليصله إلي ربيعة فهو واحد من شعراء ربيعة (١).

وطرفة بالتحريك لقبه وهي واحدة الطرفاء وهو نوع من الشجر والعرب كانت تسمي أبناءها بما غلظ و خشن من الشجر تفاؤلاً نحو طلحة وسمرة وقتادة ، كما تسمي بأسماء الحيوان وخاصة ما يستكره منها كأسد وحنظلة وحرب وعلقة لأنها تشعر بالشدّة والقوة لدي سامعيها بينما يسمون عبيدهم بما يستحب كرباح وأيمن ، وذلك لأنها سمت أبنائها لأعدائها وسمت عبيدها لأنفسها (٢)

نشأ طرفة يتيماً من أبيه فكفله أعمامه فأهملوا تربيته وأسأوا أدبه فشب ميالاً إلي الدعة والتبطل ، عاكفا علي اللهو والخمر مولعاً بالوقوع في أعراض الناس.

وكان طرفة من أسرة شاعرة نبغ فيها أكثر من شاعر ، لذا فقد كان شاعراً جريئاً علي الشعر وكيف لا وخاله المتلمس الضبعي الشاعر المشهور ، وأخته الخرنق شاعرة و عمه المرقش الأصغر والمرقش

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٩١ تحقيق أحمد شاکر ط دار التراث العربي

. ١٩٧٧

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص—؛ تحقيق عبد السلام هارون الناشر مؤسسة الخانجي سنة

١٩٥٨ م.

الأكبر عم المرقش الأصغر وهما شاعران ، ومن أسرته الحارث بن حلزة صاحب المعلقة فورث بذلك الموهبة الفنية كما يرث الناس المال والشرف.

كانت أخت طرفة متزوجة من رجل يسمي عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد وكان هذا الرجل سيد أهل زمانه وكان من أحب الناس إلي عمرو بن هند الملك فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجها إلي طرفة فعاب عبد عمرو وهجاه فخرج مرة عبد عمرو يصطاد مع عمرو بن هند فرمي صيداً فقال لعبد عمرو أنزل فأذبحه فحاول عبد عمرو ولم يستطع وأعياه ذلك من التعب فضحك الملك وقال . لقد صدق طرفة حينما هجاك فقال :

ولا خير فيه غير أن له غني وأن له كشحاً إذا قام أهضما
تظل نساء الحي يعكفن حوله يقطن عسيب من سرارة ملهما
وكان طرفة قد هجا من قبل عمرو بن هند ، فلما قال عمرو بن هند لعبد عمرو ما قال طرفة قال : ما قال فيك أشد مما قال في ، وأنشد هجاء طرفة لابن هند حيث يقول :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قبئنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الحكم يقصد أو يجور

فقال عمرو بن هند: أو قد بلغ من أمره أن يقول في مثل هذا الشعر ؟

فأرسل إلي طرفة وخاله المتلمس - وكان المتلمس قد هجاه أيضا - فأتياه فهش للقائهما يريد أن يؤمنها وأمر لكل منها بصلة وعطاء وأعطي كلاً منهما رسالة في يده إلي عامله بالبحرين ليأخذ الصلة منه ، ولكن الرسائل كان مكتوماً فيها أمر بقتلها - وكانا لا يجيدان القراءة فلما كانا في طريقهما إلي العامل ، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس . وقال لطرفة " تعلمن والله أن ارتياح عمرو لي ولك لأمر مريب عندي ولن أنطلق بصحيفة لا أدري ما كتب فيها ؟ فقال طرفة : إنك لسيئ الظن ففك المتلمس ختم الصحيفة ثم جاء إلي غلام من أهل الحيرة فقال له : أنقرأ يا غلام ؟ فقال نعم . فأعطاه الصحيفة فقرأها فإذا فيها باسمك اللهم ، من عمرو بن هند إلي المكعبر ، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم أدفنه حياً فقال الغلام : أنت المتلمس؟ قال نعم ، قال النجاة بنفسك فقد أمر بقتلك ، فألقي الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة معك والله مثلها فقال طرفة : لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ علي ، وأبي أن يطيعه وخرج حتى أتى صاحب البحرين بكتابه ، فقال له صاحب البحرين ، إنك في حسب كريم وبينني وبين أهلك إخاء قديم وقد أمرت بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندي فإن كتابك إن قرئ لم أجد بداً من أن أقتلك . فأبى طرفة أن يعطه ، فقتله وعمره ست وعشرون سنة ، وقيل عشرون فقط علي اختلاف في الروايات .

شعره

طرفه صاحب شخصية واضحة في شعره ، وصاحب مذهب واضح في حياته فهو داعية من دعاة اللهو واللذة ، وجمع إلى فتوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم .

وكان طرفه منذ حدائته متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد العاطفة ، سريع التأثر ، فنبح في الشعر وعد من فحوله وهو دون العشرين ، ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته ، ولعله مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره .

وقد عد ابن سلام في قمة الطبقة الرابعة طرفه بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد وقال عن طرفه : أما طرفه فأشعر الناس واحدة (قصيدة واحدة) وهي قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ^(١)
وشهد بذلك ابن قتيبة في كتابة الشعر والشعراء حيث قال : (قيل

(١) طبقات فحول الشعراء / السفر الأول ص ١٣٨ .

للبيد بن ربيعة من أشعر العرب ؟ فقال الملك الضليل قيل ثم من ؟ قال ابن العشرين قيل ثم من ؟ قال الشيخ أبو عقيل يعني بذلك نفسه^(١) ويمتاز شعر طرفة بصدق الوصف ، والبعد عن الغلو والمبالغة فيه إلا أن تراكيبه كانت معقدة ، ومعانيه مبهمة ، وألفاظه غريبة نجد ذلك كله بوضوح حين نقرأ معلقته التي ابتدأها بالغزل ، ثم استطرده إلي وصف ناقته بأبيات كثيرة من خير عيون الشعر العربي ومبتكره ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه ومعلقته من امتن الشعر وأبلغه ومن أبياته في وصف ناقته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي^(٢)
أمون كالأواح الإران نصأتها علي لا حب كأنه ظهر بوجد^(٣)
جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تبيري لأزعر أريد^(٤)
تباري عتاقاً ناجيات وأتبع تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت^(٥)
وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد^(٥)

(١) الشعر والشعراء ج١ ص ١٩٥

(٢) الاحتضار : الحضور . والعوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها .

المرقال : مشي بين السير والعدو

(٣) الآمون : التي يؤمن عثارها . الإران : الثابت العظيم — نصأتها : زجرتها ،

اللاحب : الطريق الواضح ، البرجد : كساء مخطط .

(٤) الجمالية : الناقة التي تشبه الجمل ، الوجناء المكتنزة اللحم ، الرديان : عدو الحمار

السفنجة : النعامة ، تبيري : تعرض ، الأزعر : القليل الشعر ، الأريد : الذي لونه لون

الرماد .

(٣) زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح المزني ، أبوه من قبيلة مزينة ولكن زهيراً نشأ وترى في أقارب أبيه من بني غطفان . وكان مشهوراً بحكمته وسداد رأيه ، ورزاقته وحبه للسلام ، وقد نظم معلقته وهي الثالثة في المعلقات علي أثر الحرب التي دارت رحاها بين عبس وذبيان وتسمى حرب داحس والغبراء ، وداحس هو فرس قيس بن زهير سيد بن عبس ، والغبراء مهرة حمل بن بدر سيد بني ذبيان ، ودارت الحرب بسبب سباق داحس والغبراء ، وذلك أن زهيراً وحملات تراهننا علي مائة بعير يدفعها من يخسر السباق إلي من يربحه ، ولما كان اليوم المعين بعث حمل بن بدر من يكمن لداحس ويرده عن غايته إذا جاء سابقاً ، ثم أرسل الفرسان فبرز داحس وسبق الغبراء حتى شارف الغاية وقرب من النهاية ودنا من الكمين ، فوثبوا عليه وردوه فسبقت الغبراء .

وبعث حمل ابنه مالكا إلي قيس يطلب منه حق السبق فأبي قيس دفعه وقتل مالكا ، فكان ذلك باعثاً علي الحرب ، وقد طالت هذه الحرب وكثر فيها القتلى حتى أصلح بين المتحاربين هرم بن سنان والحارث بن عوف ودفعا الديات من مالهما ، وقيل إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير فنظم زهير معلقته يمدح فيها المصلحين لحقنهما الدماء ، ويحذر الفرّيقين من شر الخيانة وإضرار الحرب ، وقد توسع في معلقته في

وصف الحرب ونتائجها المشئومة ثم ختم المعلقة بحكمه التي استحق
بها لقب الشاعر الحكيم .

- وظل زهير طوال حياته يمدح هرماً ويمجده وأطنب في ذلك كثيراً
ومن طريف ما يروي في ذلك أن هرماً " حلف ألا يمدحه زهير إلا
أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدة
أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملاء
قال : عموا صباحاً إلا هرماً وخيركم استثنيت " .

- وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم : أنشدني بعض مدائح
زهير في أبيك فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم القول .
فقال : والله ونحن كنا نحسن له العطاء ، فقال عمر : قد ذهب ما
أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

- وكان زهير وثنياً مثله مثل قومه ، غير أن له أبياتاً تدل على
إيمانه بالله واليوم الآخر وما فيه من حساب إذا يقول :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وقد عمر زهير طويلاً حتى زاد عمره على المائة وذلك مأخوذ من
شعره في قوله :

بدالي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا
فيكون مجموع ما ذكر مائة وثمانية أعوام ، وتوفي قبل الإسلام بفترة
قليلة ، أما ولداه كعب وبجير فقد أدركا الإسلام وأسلما وحسن
إسلامهما .

شعره :

عاش زهير للشعر يرويه ويعلمه ، فقد ذهب القدماء إلي القول بأنه
كان يروي شعر زوج أمه أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور ،
كما كان يروي شعر طفيل الغنوي المعروف بالبراعة في الوصف
خاصة الخيل والصيد ، وأيضا فإنه كان يروي شعر خاله بشامة بن
الغدير أصف إلي ذلك أنه علم ابنه كعباً الشعر وتلمذ علي يديه
الخطيب الشاعر المعروف بكثرة أهاجيه الخ

إذن فقد خرج زهير من بيت عريق في الشعر وذلك لم يكن لغيره
من الشعراء . ففي الناس من يفضله علي امرئ القيس والنابغة وذلك
لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة ، وحكمة المجرب ، ودقة المصور
ووقار العالم ، كما يمتاز شعره بألفاظ محكمة وصيغ مجودة خلت
من الحوشي والتعقيد ، وبعدت عن السخف والمبتذل والمهجور ،
واستطاع زهير أن يؤدي أجمل صورة للشعر الجاهلي في لفظه
وقوالبه وصيغته ، وقد حكى القدماء عنه في ذلك كثيرا فقالوا إنه كان
يضع قصائده الطويلة في حول كامل . وله قصائد سبع تسمي

" الحوليات " يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ، ويهذبها في أربعة أشهر ، ثم يعرضها علي خاصة الشعراء في أربعة أشهر فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

- ويلق الجاحظ علي شعر زهير فيقول : (من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كاملاً وزمناً طويلاً يردد فيها نظرة ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات)

ويروى عن عمر بن الخطاب قوله : (زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاقل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه) .

- ومعلقة زهير موضوعها الأساسي مدح الحارث وهرم لسعيهما بالصلح بين المتحاربين من عبس وذبيان ومع ذلك بدأها الشاعر بالوقوف علي الأطلال كعادة الجاهليين فقال :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم بحومانة الدراج بالمتثلم

ويقول إنه أتاها (الدمنة أو الأطلال) بعد عشرين سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة لطول عهده بها . فيقول :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربيع واسلم

ثم يتابع أبياته في استحضار تلك الذكريات التي تمثلت في خاطره فكانها مائتة أمام عينيه فيصف الطرق التي سلكها وراء الظعائن والمحوبات والمنازل التي نزلتها وهو وراءهم .

ثم ينتقل إلي فكرة الصلح وإلي الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشائر لاهجاً بالثناء عليهما والمدح لهما ، فكان بذلك شذوذاً علي قاعدة الجاهليين التي تدعو دائماً إلي الأخذ بالثأر وإيقاد نار الحرب لأتفه الأسباب فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما علي كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عيساً وذبيان بعدما ثفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
ثم ينتقل من مدحهما إلي دعوة الخصوم إلي رآب الصدع ولم الشمل
وعدم إضمار الحرب ، ويخوفهم من ذلك بتصوير الحرب في أشنع
صورها ، وما تجره علي الناس من بوار وأضرار وأوزار .

- وأخيراً تغلب عليه نزعة الإنسانية والصورة المثالية للسيد
الفاضل فينتقل بشعره إلي مجموعة من الحكم والدعوة إلي مكارم
الأخلاق فيقف موقف الحكيم الذي برم بالحياة وتفكر في الموت فيبدأ
في الوعظ فيقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يتسرس بأثياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن هاب أسباب المنايا ينلته
ومن يجعل المعروف في غير أهله
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
ومهما تكن عند امرئ من خلية
ثم يأتي ببيت فيه معني حديث النبي " ﷺ " : " المرء بأصغريه قلبه
ولسانه " إن صح الحديث فيقول:-
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
وأخيراً فقد انتهى الشعر الجاهلي عند زهير إلي صورة رفيعة للخير
والحق والجمال علي خلاف ما عهد في أشعار الجاهليين كافة .
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
علي قومه يستغن عنه ويذمم
وإن يرق أسباب السماء بسلم
يكن حمده ذماً عليه ويندم
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وإن خالها تخفي علي الناس تعلم
المرء بأصغريه قلبه

(٤) لبيد

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري ، كان من شعراء الجاهلية
المعدودين ، وعنه يقول الزيات : (نشأ ربيب الندي والبأس ، فأبوه
ربيعة المعترين وعمه ملاعب الأسنة فارس مضر ، وسبب قوله
الشعر أن السربيع بن زياد أمير عبس - وهم أخواله - دخل علي
النعمان بن المنذر فذكر بالسوء بني عامر وهم قومه ، فلما دخل
العامريون علي الملك وعلي رأسهم ملاعب الأسنة غض منهم ،
وذوي وجهه عنهم ، فنال ذلك من بني عامر وشق عليهم ، وكان
لبيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه في أمرهم فاستصغروه ولما
ألح في المسألة أجابوه ، فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتي
يحول بينه وبين منادمة الملك . فقالوا له إنا نبلوك ، فقال : وما ذاك ؟
قالوا : تشتم هذه البقلة ، وأمامهم بقلة دقيقة القضبان قليلة الورق ،
لاصقة بالأرض ، تدعي الثربة . فقال : " هذه الثربة لا تذكي ناراً
ولا تؤهل داراً ولا تستر جاراً ، عودها ضئيل ، وخيرها قليل ،
وفرعها كليل ، أقبح البقول مرعي ، وأقصرها فرعا ، وأشدّها قلعا "
فأذنوا له فهجاه بأرجوزة مقذعة أولها :

مهلا - أبيت اللعن - لا تأكل معه الخ

فنفر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العاصريين وأدناهم ، قالوا :
وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد ، ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله

حتى ظهر الإسلام فأقبل علي الرسول في وفد من قومه فأسلم وحفظ القرآن وهجر الشعر حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالاً
ولذلك عد جاهلياً وإن عمر في الإسلام طويلاً . ولما مصرت الكوفة
ذهب إليها في خلافة عمر وأقام بها حتى توفي في أول خلافة
معاوية سنة ٤١هـ وقد عاش كما قيل مائة وخمسة وأربعين سنة
حتى قال بحق :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليبد ؟^(١)
- ومعلقة لبيد هي الرابعة في المعلقات ، ولم ينظمها لأمر أو لحادثة
معينة وإنما نظمها بدافع نفسي ، فصور فيها أخلاقه ومآتيه كما
صور الحياة البدوية الساذجة ، والبدوي الأبوي النفس العاليي الهمة .
بدأ لبيد معلقته بوصف الديار المقفرة والأطلال البالية وما فعلت فيها
الأمطار فكان قوله :

عفت الديار محلها فمقامها بمني تأبد غولها فرجامها
لمن تجرم بعد عهد أنيسها حجاج خلون حلالها وحرامها
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالك ما يبين كلامها

^(١) تاريخ الأدب العربي ص ٦٨ وما بعدها .

ثم انتقل من الوقوف بالأطلال إلي الغزل وذكر محبوبته " نوار " وبعدها عنه فقال :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها
مريّة حلت بنيد وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرامها
ثم تخلص من الغزل إلي وصف ناقته فشيها بسحابة حمراء خالية
من الماء تدفعها الريح فتنتلق بسرعة ، وبأتان " أنثي الحمار " وحثية نشيطة ، وبقرة افترس السبع ولدها ، كما صور العراك الذي وقع بينهما وبين الكلاب التي طاردتها تصويراً قصصياً جميلاً ، ووصف ناقته هو أهم قسم في معلقته .

ثم تحول إلي وصف نفسه وما فيها من هدوء واضطراب ، ووصف لهوه وشربه الخمر وبطشه وسرعة جواده وكرمه ، وانتهى بمدح قومه والفخر بكرمهم وأمانتهم فكان مجيداً في تشبيهاته القصصية صادقاً في عاطفته .

شعره

كان لبيد موسوماً بسمات منها راحة العقل ، ونبل النفس وكثرة المروءة ، كريماً جواداً ، وجاء شعر لبيد صورة صادقة لكل ما اتسم به من أخلاق فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره ، وتمثلت معاني النبل والكرم في فخره .

فجاءت ألفاظه قوية منتقاة ، مضموماً بعضها إلي بعض بدقة وعناية
لذا جاء أسلوبه متيناً فخم العبارة ، قليل الحشو ، تزيينه الحكمة
العالية، والموعظة الحسنة والكلم النوايغ .
وذلك مثل قوله :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوي أحلامها
فاقنع بما قسم المليك فإتما قسم الخلاق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفي بأوفر حظنا قسامها
فبني لنا بيتاً رفيعاً سمكه قسما إليه كهلها وعلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفضت وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم والمرمات إذا تناول عامها
وهم العشيرة أن يبطن حاسد أو أن يميل مع العدو لئامها
نجد الشاعر وقد ختم معلقته بفخره بقومه وبث الحكمة من حين إلي
آخر كل ذلك في صدق وإخلاص وقصد .

(٥) عمرو بن كلثوم

هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عتاب بن مالك التغلبي ، كان من أكثر العرب ترفعاً وإباء وعزة نفس ، لذا شب علي خلال العظماء وأخلاقهم يأبى الضيم والذل ، وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى ساد قومه وقاد قبيلته .

ومعلقاته هي الخامسة في المعلقات ، أنشأ قسماً منها في حضرة الملك عمرو بن هند ، وعنده وفود من قبيلتي تغلب وبكر للصلح بعد ما قامت بينهما حروب البسوس حوالي أربعين سنة وكان والد عمر بن هند قد أصلح بين القبيلتين قبل ذلك ، ولكن خشي أن تعود الحرب بينهما فأخذ والد عمرو من كل قبيلة مائة غلام رهائن حتى إذا اعتدت إحداهما علي الأخرى أخذ الدية من الرهائن ، وسار عمرو بن هند علي خطة أبيه في هذا الارتهان .

وذاث يوم سير الملك ركباً من تغلب وبكر إلي جبال طيئ ، فأجلي البكريون التغلبيين عن الماء ودفعوهم إلي صحراء فتاهوا فيها وماتوا عطشاً ، فغضب بنو تغلب وطلبوا ديات أبنائهم ، فأبت قبيلة بكر دفع الدية ، فاحتكموا إلي عمرو بن هند ، ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب شعرها وسيدها عمرو بن كلثوم للدفاع عنها وانتدبت بكر أحد أشرفها (النعمان بن هرم) وكان عمرو بن هند يفضل

التغلبيين علي البكريين فوق جبال بينه وبين النعمان غضب له الملك فطرد النعمان ، وأنشد عمرو بن كلثوم قصماً آخر من معلقته^(١).

أما القسم الآخر فقد زاده عليها بعد قتله لعمرو بن هند ، علي أثر محاولة أم الملك أن تستخدم ليلي أم عمرو بن كلثوم .

وذلك أن الملك قال لبعض خاصته : أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟ فقالوا لا نعلم إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم فإن أباه مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم بن عتاب فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . فأرسل عمرو بن هند إلي عمرو بن كلثوم يطلب منه أن يأتي لزيارته ، وأن يصطحب أمه معه لتزور أمه ، فأقبل عمرو بن هند وأمهم من الجزيرة في وفد من تغلب وأمر الملك برواق وخيمة كبيرة فضربت بين الحيرة والفرات وأرسل إلي وجوه مملكته فحضروا وكان عمرو ابن هند قد أغري أمه أن تستخدم ليلي بنت مهلهل في قضاء أمر ، فلما دخلت عليها الرواق وجلست واطمأن بها المجلس قالت لها : ناويليني الطبق فأجابتها ليلي : لتقم صاحبة الحاجة إلي حاجتها ، فلما

^(١) وقيل : إن الحارث بن حلزة شاعر بني بكر كان موجوداً فقام وألقى معلقته المشهورة فعطف هوي الملك إلي قومه وكان يحب التغلبيين فانصرف عمرو بن كلثوم وهو موغر الصدر علي ابن هند .

أحبت عليها صاحبت ليلي : واذلاه فسمعها ولدها فثار به الغضب
وقتل ابن هند في مجلسه .

ولمعلقة عمرو بن كلثوم قيمة تاريخية كبيرة فهي تدلنا علي حالة
العرب من حيث الدين والاجتماع والعادات والصناعات والألعاب
فتخبرنا عن طواف النساء حول الصنم وعن الرقص الديني ،
ومرافقة النساء للرجال في الحرب وعن لعب الصبيان بسيوف
الخشب وقذف الكرة وغير ذلك من الفوائد التاريخية .

شعره

شعر عمرو بن كلثوم قليل ولم يؤثر عنه إلا معلقته وبعض
مقطوعات من الشعر لا تخرج عن موضوع المعلقة إلا أن ما روي
عنه من شعر يغلب عليه غمر البديهة وقلة الصنعة رائق الأسلوب ،
نبيل الغرض عذب السليقة .

ومعلقته مستهله علي غير عادة العرب بذكر الخمر حيث يقول :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا	ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصي فيها	إذا الماء خالطها سخينا
تجور بذى اللبانة عن هواه	إذا ما ذاقها حتى يلينا

ثم خلاص إلي الغزل فقال :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرنا

قفي نسألك هل أحدثت صرماً لوشك البين أم خنت الأميـنا
ثم يصف أمره مع عمرو بن هند وافتخاره بنفسه وقومه فيقول:
ألا لا يعلم الأقوام أنا تضعفنا وأنا قد ونيـنا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليـنا
بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطيـنا
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتويـنا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت علي الأعداء قبلك أن تليـنا
ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينـا
ورثت مهلهلا والخير منه زهيراً نعم ذخـر الزاخريـنا
وعتابا وكلثوما جميعا بهم نلنا تراث الأكرميـنا
ومنا قبله الساعي كليب فاي المجد إلا قد وليـنا
ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذ عصيـنا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضيـنا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنوا أبيـنا

ولقد اهتمت العرب بتلك المعلقة وتناقلتها الألسنة ، وأكثر بنو تغلب
من إنشادها وراويتها حتى قال فيهم الشاعر :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة
يفأخرون بها مذ كان أولهم
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يا للرجال لشعر غير مسنوم
وكانت وفاة عمرو بن كلثوم في أواخر القرن السادس الميلادي .

(٦) عنتره

هو عنتره بن عمرو بن شداد العبسي ، وكنيته أبو المغلس ، أبوه من أشراف القبيلة ولكن أمه كانت أمة حبشية تدعى زبيبة ، فهو من هجاء العرب وأغربتهم ، كان أبوه قد استعبده على عادة العرب في استعباد أبناء الإماء ، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية وأخذ يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى أصبح مسعر حرب وقائد كتيبة واتفق أن أغار قوم من العرب على بني عيس فأصابوا منهم واستاقوا إبلهم فتبعهم العبسيون وعنتره معهم يومئذ ، فقال له أبوه : كر يا عنتره ، فأجابه : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلب والصر ، فقال له : كر وأنت حر : فكر وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيرين واسترجع الإبل ، فادعاه أبوه وألحقه بنسبه وعرف من يومها بعنتره بن شداد وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة .

يقول الزيات : (وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف لا بأس بذكره . قال له قائل : أنت أشجع الناس وأشدهم ، فقال له : لا قال : فلماذا شاع لك هذا بين الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا

أري لي منه مخرجا ، وكنت أعتد الضعيف الجبان فأضربه
الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله (١)

شعره

كان عنتره بطلا شجاعاً كبير النفس ، رقيق القلب ، رحب الصدر
عفيفاً وقد أحب عبلة ابنة عمه مالك ، واستولى حبها علي قلبه ،
وجاش الشعر في صدره ، فهاجت شاعريته ، واتسع خياله فجري
الشعر علي لسانه في الحرب وفي الفخر ، وفي الحب ، فتجد لغزله
حلاوة ، ولفخره متانة ، ولألفاظه سهولة ، بالإضافة إلي حسن
الانسجام ، ومتانة التعبير ، والموسيقى مما جعل العرب يسمون
معلقته بالذهبية .

* وأشهر شعر عنتره معلقته وهي السادسة في المعلقات ، ولم يرو
عنه في عبوديته شيئ من الشعر لا جيد ولا ردي .

* قيل في سبب نظمه لمعلقته : أنه كان في أحد الأيام في مجلس
بعد أن كان قد أبلت في حروبه بلاء حسناً فشاتمه رجل من بني
عبس ، وعيره بسواده وسواد أمه وأخوته ، وأنه لا يقول الشعر
فسبه عنتره وفخر عليه وقال له :إني لأحضر البأس ، وأوفي المغنم ،
وأعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي فقال له الساب :

(١) تاريخ الأدب العربي ص ٥٨

أنا أشعر منك فقال عنتره : ستعلم ذلك ، ثم غدا على الناس بمذهبتهم المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه .

وانشأ معلقته فبدأ بذكر عبلة وبعد دارها فقال :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي
فوقفت فيها ناقتي وكانها فدن لأقضي حاجة المتلوم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثلّم
حييت من ظلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

ثم ينتقل من غزله بعبلة ومن وقوفه بالأطلال إلى وصف ناقتة ، ووصف نفسه بأنه لا يظلم ولا يجرؤ أحد على ظلمه وبأنه يشرب الخمر فيكون كريماً شريفاً في شربه وصحوه ، ثم وصف بطشه وصور فرسه تصويراً جميلاً رفعة فيه إلى درجة الإنسانية فقال :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمّم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمم
لوكان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ثم يختم قصيدته بأن يشتهي لنفسه من الذين سبوه وشتموه وأنه ما مات حتى أخذ بثأره منهم فقال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة علي ابني ضم
الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشع
عاش عنزة قائداً لكتيبة عيس في حرب داحس والغبراء فأحسن
القيادة وبلغ أوج السيادة ، ثم امتد به العمر حتى وهن عظمه ورق
جلده ، وقتل حوالي سنة ٦١٥ م .

(٧) الحارث بن حلزة

هو أبو الظليم الحارث بن ظليم بن حلزة اليشكري البكري ، كان شديد الفخر بقومه حتي ضرب به المثل فقيل : أفخر من الحارث بن حلزة وكانت مكانته في قبيلة بكر كمكانة عمرو بن كلثوم في تغلب ، ومعلقته ارتجلها دون إعداد مسبق ، في حضرة الملك عمرو بن هند حينما اجتمعت بكر وتغلب عنده للصلح ، وأنشد الحارث معلقته ليستدر بها عطف عمرو بن هند علي قبيلته " بكر " لأنه كان يعلم حبه للتغلبيين ، وبالفعل استطاع الحارث أن يثني الملك لصالحه بعدما أجاد في مدحه حتى استولي علي رأيه واستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه .

❦ ويقال أنه أنشدها وهو متكئ علي قوسه وقد اقتطعت كفه وهو لا يشعر من الغضب .

❦ ويقول الزوزني شارح المعلقات السبع إنه (أنشدها في حضرة الملك عمرو بن هند ، ورداً علي عمرو بن كلثوم وغضباً لقومه ، وكان عمرو بن كلثوم قد تجاوز الحد في فخره ولم يرع حرمة الملك فتصدي له الحارث بمعلقته ، وكان قد أعدها ورواها جماعة من قومه ، لينشدها عنه لأنه كان به برص ، وكره أن ينشدها الملك من وراء سبعة ستور ثم يغسل أثره بالماء ، كما يفعل بسائر البرص ولما طرد الملك النعمان بن هرم شاعر البكريين لإساءته إليه ، خاف

الحارث علي قومه ، وقام ينشد بين يدي الملك من وراء الستور ، فأصلح ما أفسده النعمان ، وكان لقصيدته وقع حسن في نفس الملك حتي رفع الستور التي كانت بينهما وأدناه منه وأطعمه في جفنته وأمر ألا ينضح أثره بالماء) (١)

وقد عمر الحارث طويلاً حتي زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة .

شعره

دلت معلقة الحارث علي ما به من الدهاء ، فقد امتلأت القصيدة بالدهاء في التعريض بالتغليبين وسرد الحوادث التاريخية ، ومن الحكمة والرزانة ما يجعلها في مصاف الشعر الخطابي ، وهي أفضل مثال للشعر السياسي في العصر الجاهلي .

وقد بلغت معلقة الحارث من الإعجاب مكاناً بعيداً ، وذلك لإحكام نسجها ، وتشعب فنونها وارتجالها في موقف واحد .

وقد بدأ معلقته بالغزل إلي وصف ناقته ، علي عادة الشعراء الجاهلين فقال:

رب ثاو يمل منه الثواء

ء فأدني ديارها الخلصاء

آذنتنا بينها أسماء

بعد عهد لنا ببرقة شما

(١) شرح المعلقات السبع / الزوزني ص ٢١٥ ط دار الجيل

الدرسة الثانية : مدرسة الشعراء الصعاليك

الصعاليك جمع صعلوك ، والصعلوك هو من لا مال له ، بيد أن هذه اللفظة " الصعاليك " حينما تذكر في العصر الجاهلي فإنها لا تفق عند حدود معناها اللغوي ، بل تنصرف إلي مجموعة كبيرة من الشعراء عرفت بهذا الاسم.

وهؤلاء الشعراء الصعاليك خليط ممن لفظتهم قبائلهم وطردتهم لأنهم ارتكبوا من الجرائم والجنايات ما لا يستحقون به شرف الانتساب إلي قبيلة بعينها ، ومن الذين ولدوا لأمهات من الإماء الحبشيات السود ، فلم يعترف بهم أبائهم لما في ذلك من العار لهم ، ومن الذين احترفوا الصعلكة احترافاً لا لشيء مما سبق وإنما اتخذوا الصعلكة حرفة ومهنة.

أذن الصعاليك خليط من ثلاثة أجناس إلا أنهم اجتمعوا علي شيء واحد وهو الضيق بالفقر والرق والجوع والطبقية بين أغنياء القبيلة وفقرائها فنارت أنفسهم علي الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ، واحترفوا الصعلكة واللصوصية.

والشعراء الصعاليك عرفوا بالقوة والشجاعة والصبر عند البأس والفتوة وسرعة العدو " الجري " حتي ضرب بهم المثل في ذلك ، فاتخذوا من تلك الصفات السابقة ومن حقدهم علي الأغنياء طريقاً

للحصول على كل ما أرادوا عن طريق البطش والقوة والسلب والنهب وكل ما حرّموا منه.

ومن هؤلاء الشعراء : الشنفرى ، وتأبط شراً ، وعروة بن الورد العبسي، وسليك بن السلكة ، وحاجز الأزدي وغيرهم ، وتسموا بأسماء أخرى غير الصعاليك مثل العدائين ، أو ذؤبان العرب ، أو اللصوص ، وذلك لما عرفوا به من سرعة الحركة والخفة وحسن ركوب الخيل والمعرفة بدروب الصحراء ، والإغارة على القوافل التجارية ، أو قوافل الحجيج المتجهة إلى مكة ، أو المناطق الخصبة. ولهؤلاء الشعراء أشعار كثيرة منثورة في كتب الأدب وتروي لهم مغامرات مختلفة ، وكثيراً وكانوا يتغنون بهذه المغامرات في أشعارهم ونراهم في أثناء ذلك يتمدحون بالكرم ، وبالترفع والشعور بالكرامة والبر بالأقارب والأهل وكانت الصعلكة في نظرهم ليست عيباً ، بل هي من دواعي فخرهم وأسباب أنفتهم وكانهم أرادوا أن يقولوا نحن نصبر على الجوع خير لنا من أن يكون لأحد يد علينا ، فإذا وجدوا الطعام آثروا به غيرهم من الأولاد والنساء وفي ذلك يقول شاعرهم :

وإني لأثوي الجوع حتى يملني فيذهب ثم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتيق الماء القراح فأنتهي إذا الزاد أمسى للمزليج ذا طعم^(١)

(١) المزليج : البخيل .

أرد شجاع البطن قد تعلمينه
مخافة أن أحيا برغم ذلله
وأوثر غيري من عيالك بالطعم
وللموت خير من حياة على رغم

obeyikanda.com

من الشعراء الصالحين

(١) الشنفرى

هو ثابت بن أوس الأزدي ، من بني الإواس بن الحجر بن الأزدي
ولقب بالشنفرى لغلظ شفتيه وتلك سمة أبناء الحبشيات وهو من
" أغربة العرب " لأن أمه كانت أمة حبشية فورث منها السواد .

عاش الشنفرى لصاً صعلوكاً مهاب الجانب يخافه الناس ، وعاصر
شاعرين مشهورين هما " تأبط شراً " و " أبو خراش الهذلي " .
ويقال أن الذي روضه علي الصعلكة وقطع الطرق تأبط شراً ، فكان
يغير معه ، حتى صار لا يوقف في وجهه ولا يقام لسبيله .

وتذكر الروايات أنه لم يعرف حياة الاستقرار والدعة والانتماء
الاجتماعي ، لما أحاطت به من ظروف منذ نشأته أدت به إلى ذلك
ومن ذلك ما تحدثنا به الروايات التي منها : أن أباه قتل بأيد من بني
عمومته أي من بني سلامان بن مفرج الأزدي ، ولم تجد أمه نصيراً
يأخذ بثأره فانتقلت به إلى بني " فهم " قوم تأبط شراً وراح يعد نفسه
لانتقام منهم فحلف أن يقتل منهم مائة ، وأخذ يترصد بهم حتى قتل
منهم تسعة وتسعين ، ثم استطاعوا أن يصنعوا له كمين فوق فيه
فقتلوه ومثلوا بجسده وقطعوه ورموه للسباع ، ويقال إن رجلاً وجد
جمجمته فركلها بقدمه فعقرته " أي دخلت شظية منها في قدمه " .
فمات فتم بذلك المائة .

وتروي روايات أخرى غير ذلك فتقول : إنه تزوج امرأة من بني
سلامان فخاف أبوها أن يقتله قومه لأنه لأنه زوج ابنته للشنفرى فأقسم
لها وله إن قتلوه ليقتلن منهم به مائة ، فلما قتل بنو سلامان أبا
زوجته استنجزته زوجته وحنثه علي الوفاء بوعدده والبر بقسمه فظل
يقتل منهم حتي تسعة وتسعين وقيل مائة. ولقد حظي الشنفرى من
بين الصعاليك بمكانة كبيرة ، فقد جمع صفات الصعلكة بدرجة تفوق
بها عليهم جميعاً مما جعل مكانه بينهم بارزاً وظل تاريخه فيما ولي
المجتمع الجاهلي من مجتمعات وعصور .

وللشنفرى شعر كثير في الغزل والفخر والعدو والفتك ، وفي الحكمة
والعفة وغيرها من الموضوعات التي تتجاوب أصدائها مع حياته
في الإغارة والصعلكة. ولكن من أكثر أشعاره شهرة قصيدته " لامية
العرب " والتي بدأها بقوله :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم

فإني إلي قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر

وشدت لطيات مطايا وأرجل

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيه لمن خاف القلي متعزل

لعمرك ما في الأرض ضيق علي امرئ

سري راغبا أو راهبا وهو يعقل

ولهذه القصيدة أهمية كبيرة حيث إنها تسجل حياة وتاريخ طائفة من العرب وليست هناك قصيدة في الشعر العربي تنافسها في موضوعها وفي مقدرتها علي تصوير لون من الحياة العربية هي "حياة الصعلكة" ومما يقال إن اللامية تعرضت في القديم لمحاولات تشبه السطو، ولكنها لم تنجح وظل المجتمع يعرف القصيدة للشنفرى ولا يرتاب في ذلك.

والشنفرى مثل للشاعر الواقعي الذي يعيش علي الفطرة ويمثل البداوة ويألف الغابات، ويعايش السباع والضواري فيأتي شعره صورة لحياته كقوله مخاطباً أهله يخبرهم بأنه اتخذ أهلاً غيرهم ، بيد أن أهله الجدد هم من السباع كالذئاب والنمور والضباع :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيال
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبي باسل غير أنني إذا عرضت أولي الطرائد أبسل
وإن مدت الأيدي إلي الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

والشنفرى علي خشونته شاعر صادق التعبير، دقيق التصوير، خشن الألفاظ والمعاني.

(٢) تأبط شراً

وهو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي " من قبيلة فهم " وهي إحدى القبائل المضرية ، وهو من " أغربة العرب " لأنه كان ابن أمة سواء حبشية ، وقيل إن أمه كانت حره وتسمى " أميمة " وعرف هذا الشاعر بعدوه " سرعة جريه " وفنكه ولصوصيته .

(واختلف القدماء في تعليل لقبه " تأبط شراً " فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج فلما سئلت عنه قالت : تأبط شراً ومضي لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليناً بالأفاعي ، وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنایات وجرائر ، أي إنه يحمل دائماً في أطوائه شراً يريد أن ينفذه ، ويظهر أن أباه مات وهو صغير فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرجه علي شاكلته ، وربما كان لسواده وتعبير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه وكان يرافق الشنفرى في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق) (١)

ولهذا الشاعر أشعار كثيرة في كتب الأدب كالأغاني ، والشعر والشعراء وشرح شواهد المغني ، وخزانة الأدب ، إلا أنه ليس له

(١) العصر الجاهلي / شوقي ضيف ص ٣٧٧ .

ديوان شعر مطبوع ، ومن شعره الذي يرسم فيه صورة الصعلوك
من أمثاله الذي يقدره ويجله :

لكنما عولي إن كنت ذا عول علي بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد في عشيرته فرجع الصوت مندأ بين إرفاق
حمال ألوية شهاد أندية قوال محكمة جواب آفاق
فذاك همي وغزوي أستغيث به إذا استعثن بضافي الرأس نعاق
ومن شعره الحكمي قوله :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جد

أضاع وقاسي أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً

به الخطب إلا وهو للتصد مبصر

وشعره فيه سذاجة البدوي وفطرتة، وتبدو فيه بعض خشونة المعاني
والمباني " الألفاظ " كسابقه الشنفرى.

(٣) عروة بن الورد

هو عروة بن الورد بن زيد العبسي ، شاعر جاهلي وفارس من فرسان بني عبس احترف الصعلكة واتخذها باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين أفراد قبيلته وضعفائها ومن أجل ذلك لقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم ، وهو من أشرف الصعاليك لأنه لم يغز للسلب والنهب كسابقه الشنفرى وتأبط شراً ، وإنما كانت صعلكته وكان غزوه من أجل الفقراء والمرضى والضعفاء من قبيلته يقول د/شوقي ضيف نقلاً عن كتاب الأغاني : (كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة " أزمة جذب " شديدة وتركوا في ديارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحضر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف (الحظائر) ويكسبهم . ومن قوي منهم - إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته - خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة كانوا اغتتموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغني فلذلك سمي عروة الصعاليك) (١)

(١) العصر الجاهلي ص ٣٨٣ ، الأغاني ج ٢ ص ٧٨

وكثيراً ما تترد في أشعاره المعاني الكريمة ، والأخلاق النبيلة التي إذا سمعها من يعرف لتلك المعاني والأخلاق حقها لا يملك أن يعجب به أشد الإعجاب وسرعان ما تتحول الصعلكة في ذهنه إلى معنى قريب من الفروسية والمروءة وذلك مثل قوله :

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي شحوب الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
إنه يقسم طعامه بين الفقراء وذوي الحاجة على حين لا يشركك أحد
في إنائك ولذلك سمنت أما أنا فصرت نحيلاً شاحب اللون .

هذه المعاني والأخلاق جعلت معاوية يقرأ شعره في العصر الأموي ويقول: (لو كان لعروة بن الورد ولد لأجبت أن أتزوج إليهم)

وأيضاً هذه المعاني والأخلاق جعلت عبد الملك بن مروان يقول :
(من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد) وكان يقول أيضاً (ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد أي لو تمنيت أن يكون لي أب غير أبي لتمنيت أن يكون هو عروة بن الورد .

ومن أشعاره التي تجسد تلك الأخلاق والمعاني أيضاً :

قلت لقومي في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح (١)
تتالوا الغني أو تبلغوا بنفوسكم إلي مستراح من حمام مبرح
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً أو يصيب رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
والحقيقة أن عروة في عاطفته وغاياته وأخلاقه وشرفه قد استطاع
أن يغير مفهوم الصعلكة ويجعلها نوعاً من المروءة بكل ما تحمله
الكلمة من معان ، لأنه بكل بساطة استطاع أن يحقق فكرة التضامن
الاجتماعي ، أو ما نسميه نحن بالمفهوم العصري (الاشتراكية)
وهي الفكرة القائمة علي الإيثار ومساعدة الغير وبخاصة المعوزين
وذوي البؤس والشقاء والمحرومين .

المدرسة الثالثة : مدرسة عبادة الشعر

الشعر لغة الحياة ، وترجمان الحضارة ، وصوت الإنسان المعبر عن آماله وآلامه في كل عصر من العصور وعلي كافة المستويات . وقد كان للشعر دور عظيم في تسجيل مآثر العرب وحياتهم ورصد عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم قبل ظهور الإسلام .
- وأمام هذه المنزلة العالية للشعر والشعراء لم يملك التاريخ إلا أن يسجل من صنوف هذا الفن وألوانه ما ليس له نظير في حياة غير العرب من الأمم .

ومن دلائل عظم الشعر عند العرب ، وجليل خطبه في قلوبهم أنه لما بعث النبي (صلي الله عليه وسلم) بالقرآن المحكم المعجز ، أعجب قريش ما سمعوا منه وقالوا ما هذا إلا سحر ، وقالوا في النبي : شاعر نتربص به ريب المنون .

وقد أدرك نقاد العرب أن الشاعر إنسان غير عادي يمتاز بأمرين : أولهما : الفطنة والذكاء والتنبه للمعاني التي لا ينتبه إليها سواه . وثانيهما : مقدرته على أن يصف ما فطن إليه ، وأن يبين عن شعوره في عبارة واضحة ، وهذا ما عناه صاحب نقد النثر عندما قال : (والشاعر من شعر يشعر شعراً وإنما سمي شاعراً ،

لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره^(١) .

ومن هنا ندرك أن النقد قد وضع الشعر في مرتبة رفيعة ، فكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، ودفاع عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنتون إلا بسلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج .

لهذه المنزلة للشعر وللشعراء نجد أن مجموعة من الشعراء قد بالغوا في تجويد قصائدهم وتحبيرها إلي حد كبير حتي إن بعض القصائد كانت تظل عند أصحابها من الشعراء حولاً كاملاً ليغير فيها وينقح ويراجع حتي يصل بها إلي درجة عالية من الإتقان والجودة عرفت هذه القصائد بـ " الحوليات "

- ومن هنا جاءت فكرة أو تسمية " عبيد الشعر " ، والذين أطلقوا هذه التسمية " عبيد الشعر " هم النقاد لأنهم شبهوا الشعراء الذين ينشئون القصائد ثم يراجعونها ويغيرون فيها حولاً كاملاً بأنهم يتعبدون لهذه الأشعار فيظلون في خدمتها عاماً تاماً . فكانهم بذلك رقيق عندها وخدم لها .

(١) نقد النثر ص ٧٧

- من الشعراء الذين أطلقت عليهم هذه التسمية في العصر الجاهلي زهير ، والنابغة ، والحطيئة ، والنمر بن تولى ، وطفيل ، يقول ابن رشيقي : (وكان الأصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما . ومن أصحابهما في التفتيح وفي التثقيف والتحكيم طفيل الغنوي وقد قيل : إن زهيراً روي له ، وكان يسمى " محبراً " لحسن شعره . ومنهم الحطيئة ، والنمر بن تولى ، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكيس ، وكان بعض الحذاق بالكلام والماهرين به يقول : قل من الشعر ما يخدمك ، ولا تقل منه ما تخدمه ، وهذا هو معني قول الأصمعي) (١)

وربما كان دافع الشعراء إلي التحبير والتحكيم والمراجعة والإجادة هو أن ينالوا رضا الممدوحين وعطاياهم ، لذا لجأ هؤلاء الشعراء إلي شحذ همتهم ، وصقل أذهانهم ، وتهذيب بيانهم ، ومراجعة أفكارهم ، هذا كله عاد علي الشعر عامة ، وشعر المديح خاصة بالجودة والإتقان والتفتيح وخلوه من العيب إلا أنه في الوقت نفسه أصاب الشعر بكثير من التكلف والصنعة والافتعال ، كما أنه حظ من قدر الشاعر لأنه تكسب به وجعله وسيلة للاستجداء وطلب الهبات .

(١) العمدة ج ١ ص ١٣٣ بتصرف

ولهذا عاب بعض الشعراء هذه الطريق من التكلف والصنعة للأشعار
وقال يكتفيك من القول ما تصيب به غرضك فقال :

من القول ما يكتفي المصيب قليله ومنه الذي لا يكتفي الدهر قائله
يصد عن المعني فيترك ماتحاً ويذهب في التقصير منه يطاوله
فلا تك مكثراً تزيد علي الذي عنيت به في خطب أمر تزاوله

ومع أن بعض النقاد قد عاب تلك الطريقة من خدمة الشعر وشحذ
القريحة له وتعاطيه عن قصد لا عن طبع ، إلا أننا وجدنا في العصر
الإسلامي من الشعراء من سلك هذه السبيل فجعل يتعب نفسه وعقله
وخاطره في قول معني معين قاله شاعر آخر ، ومن هنا جاءت ما
يسمي بـ " السرقات الأدبية " أو التقليد ، أو التضمين أو المعارضة
..... إلخ ، وكان من الشعراء الإسلاميين الذين سلكوا هذا المسلك ،
أبو نواس (الحسن بن هانئ) وأبو تمام الطائي (حبيب بن أوس)
وغيرهما .

المدرسة الراجحة مدرسة شعراء القرى الحريمية (مكة - المدينة - الطائف)

- مكة " البلد الحرام " هي واد من أودية جبال السراة ، وتقع بين اليمن والشام لذا كانت ممسكة بزمام التجارة وقوافلها في العصر الجاهلي فصارت ملتقى القوافل ، ومهجر القبائل مع أنها جبال جرداء من كل جانب ، وقد وصفها الله في قرآنه بأنها (واد غير ذي زرع) إلا أن بها بيت الله الحرام الذي كانت تعظمه كل القبائل الجاهلية وتضع حوله أصنامها وتطوف به وبها ، وزادها تعظيماً وتقديساً في نفوس العرب فشل الحملة التي قادها أبرهة الحبشي والي الحبشة علي اليمن حينما حاول أن يستولي عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١م ومنذ ذلك الحين أصبحت مكة رمزاً لاستقلال العرب وعزتهم وقوتهم وذلك لأنها لم تكن تحت إمرة أي ملك أجنبي .

- وكان أهل مكة أشرف العرب ، وكانت كثير من القبائل تعترف لهم بالسيادة وذلك لأنهم كانوا يرعون الكعبة ويخدمون البيت وما حوله من أصنام وأوثان ، كما كانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تنزل بها . هذا كله يؤكد مكانتها وزعامتها علي العرب فهي بيت كعبتهم المقدسة وبيت تجارتهم ، وبيت أسواقهم سواء التجارية أو الأدبية " عكاظ " ومجنة ، وذي المجاز " لذلك عظم شأنها في الجاهلية ، ومع ما كان للمناذرة والغساسنة ولكسري وغيرهم من الملوك والأمراء من مكانة فإن كثير من العرب كان يري سادة

قريش فوق هؤلاء جميعاً ؛ بهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية إذ كانت مثابة للناس وأماناً حيث تتمتع فيها القبائل والعشائر بالحرية التامة وتسير شئونهم حسب قوانين العرف والعادة .

أما الطائف فقد كانت تقع في الجنوب الشرقي لمكة ، ولكنها تختلف عنها اختلافاً كلياً من حيث الزراعة والثمار والكلأ ، فقد كانت مليئة بالرياض والبساتين التي جعلتها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وكانت مشهورة بطيب الهواء ، والخمر الصافية . وكانت تقطنها قبائل ثقيف الوثنية التي استقرت فيها كما استقرت قريش في مكة .

وأما المدينة " يثرب " فتقع شمالي مكة ، في وادٍ خصب تحيطه المرتفعات ، وتكثر بها العيون والآبار وتكسوه الأشجار والزرور والنخيل ، مع الجو المعتدل فأصبحت كواحة جميلة وكان يقطنها اليهود ، وظلوا مسيطرين عليها فترة طويلة إلى أن جاءت قبائل الأوس والخزرج من الجنوب فأصبحوا هم سادة المدينة مع أنهم وثنيون ، وكانت حياتهم لا تختلف عن حياة البدو في شيء ، وكان اليهود يعملون على الوقيعة ونشر العداوة بينهم حتى يشغلوهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم السلاح الذي يتقاتلون به وكانت هناك قري خاصة لليهود في يثرب منها خيبر وتيماء وفنت ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر بن الخطاب من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة .

وكان من أشهر شعراء القرى : أمية بن أبي الصلت ، السموأل
ابن عادياء ، وأخوه شعيب بن عادياء .

من شعراء القرى

(١) السموأل بن عادياء

هو أبو شريح السموأل بن عادياء ، من يهود يثرب ، وكان
شاعراً فصيحاً مقداماً جواداً عالي الهمة ، سريع النجدة ، شريف
القول والفعل وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء بين
الحجاز والشام ، وكانت العرب تنزل فيه فيضيئها ، وكانوا
يقيمون هناك سوقاً ومن قوله في حصنه :

بني لي عادياء حصناً منيعاً وماء كلما شئت استقيت

وأوصي عادياء يوماً بأن لا تهدم يا سموأل ما بتيت

وحدث أن نزل امرؤ القيس علي السموأل ، وكان قاصداً قيصر
في القسطنطينية ، فأودع امرؤ القيس عند السموأل دروعاً كانت
ملوك كندة يتوارثونها ملك عن ملك ، ورحل امرؤ القيس في
وجهته وجاء الحارث بن أبي شمر الغساني من قبل المنذر ليأخذ
من السموأل ما أودعه امرؤ القيس من مال ودروع ، فتحصن
السموأل منه ، وأبي أن يسلم الدروع ، فقبض الحارث علي ابن
للسموأل كان قد خرج إلي الصيد ، ونادي بالسموأل أتعرف هذا :
قال : نعم هذا ابني ، قال : أتسلم ما عندك أم أقتله ، قال له

السموأل : شأنك به فليست أخفر في نمتي ، فضرب الحارث

وسط الغلام فقطعه شطرين وانصرف ، فقال سموأل :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت

فضرب به المثل في الوفاء ، ومن شعره الدال علي كرم خلقه

ومروءته وشهامته قوله مفتخرا :

إذا المرء لم يدينس من اللوم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل علي النفس ضيمها

فليس إلي حسن الثناء سبيل

تعيرنا أنا قليل عديتنا

فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا

عزیز وجار الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نجيره

منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثري وسحابه

إلي النجم فرع لا ينال طويل

يقرب حب الموت آجال لنا

وتكرهه آجالهم فتطول

تسيل على حد الظلمات نفوسنا

وليست على غير الظلمات تسيل

وننكر إن شئنا على الناس قولهم

ولا ينكرون القول حين نقول

وأسيافنا في كل شرق ومغرب

بها من صراع الدارعين فلول

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم

فليس سواء علم وجهول

(٢) أمية بن أبي الصلت

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت الثقفي ، كان تاجراً يمارس التجارة طوال عمره ، وكان مفضولاً على التدين ، وفي بعض أسفاره التقى ببعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتمس الدين ، ولبس المسوح ، وحرّم الخمر ، وشك في الأوثان ، وطمع في النبوة ، وقال في دين إبراهيم :
كل دين يوم القيامة عند الله
إلا دين الحنيفية زور
أي كل الأديان زور عند الله إلا دين الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه السلام .

فلما بعث الرسول " صلي الله عليه وسلم " بهت الرجل وسقط في يده ، وكفر بالنبي حسداً وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه فنزل فيه قول الله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) .

ثم أخذ يحرض علي الرسول ، فنهى الرسول عن رواية شعره في ذلك وكان الرسول إذا سمع شعره في التوحيد يقول : آمن لسانه وكفر قلبه ، ثم فر أمية بابنته إلي أقصى اليمن ، وهناك وافته المنية ، وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منهما :
لبيكما لبيكما ! هأنذا لديكما ، لا مال يفديني ، ولا عشيرة تتجيني !

إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأي عبد لك إلا ألما ؟ ثم أقبل علي من
حضر وقال :

كل عيش وإن تطاول دهــــراً

منتهي أمره إلي أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لــــي

في رؤوس الجبال أرعي الوعولا

اجعل الموت نصب عينيك واحذر

غولة الدهر إن للدهر غولا

شعره

اشتهر أمية بن أبي الصلت بالشعر ذي المعاني الدينية ،
فانصرفت إليها قريحته واصطبغ بها شعره ، فقد وصف الله ،
وذكر الحشر وأهواله ووصف الجنة والنار والملائكة ، ونظم
حوادث التوراة كقصة إسحاق وإبراهيم ، وأدخل في الشعر معاني
وأساليب وألفاظ ، وتراكيب لم يألّفها الشعراء ، ولم يعرفها العرب
بعضها من العبرية وبعضها من محدثاته ، فكان يسمى الله عز
وجل بالسلطيط ، والتغرور ، ويسمي السماء بالصاقورة
والحاقورة ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه
الساهور ، ولذلك كان اللغويون لا يحتجون بشعره .

ومن شعره يعاتب ابنا له كان قد عقه :

غذوتك مولودا ومنتك يافعا

تعل بما أجنبي عليك وتنهل

إذا ليلة تابتك بالشجو لم أبت

لشكواك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي

طرفت به دوني ، فعيني تهمل

تخاف الردي نفسي عليك وإني

لأعلم أن الموت حتم مؤجل

لما بلغت السن والغاية التي

إليها مدي ما كنت فيك أوئل

جعلت جزائي غظة وفظاظة

كأنك أنت المنعم المتفضل

ومن قوله :

بالحمد صبغنا ربي ومسانا

الحمد لله ممساتا ومصبغنا

مملوءة ، طبق الآفاق سلطانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنه

ما بعد غايتنا من رأس محياتنا

ألا نبي لنا منا فيخبرنا

أن سوف يلحق أحرانا بأولانا

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا